رسائل من ذهب (٣)

قصد السبيل

إلى ذم الكلام والتأويل

تأليف
العلامة محمد صديق حسن خان
(رحمه الله تعالى)

تحقيق
أبي عبد الرحمن سعيد معشاشة

دار ابن حزم

قصد السبيل

إلى ذم الكلام والتأويل

بسم الله الرحمن الرحيم

رسائل من ذهب (٣)

قصد السبيل

إلى ذم الكلام والتأويل

تأليف

العلامة محمد صديق حسن خان

(رحمه الله تعالى)

تحقيق

أبي عبد الرحمن سعيد معشاشة

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

المقدّمة

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وصلّى اللهم وسلم على سيّدنا محمد أشرف خلقه، وعلى آله وصحبه، وعلى كل من اقتفى شريعته وذب عنها بيده ولسانه وقلبه، وبعد:

فإن علم الكلام شر مطلق، وباطل ملفّق، ومن اشتغل به تزندق، أوّله عناء واكتئاب، وآخره شقاء واضطراب، ما جرّ لهذه الأمة إلّا الويل والدمار، وما انتفع به أحدٌ لا زيدٌ ولا عمّار، فكم اغترّ به من أناس بكيد الوسواس الخناس، فما كان لهم منه فائدة، ولا عادةُ عليهم بعائدة.

ومن لم يقنع بكلامي، ولا رضي بمقالي، فليقرأ كلامِ الغزالي والإمام أبي المعالي، فقد حظيا من العلم بنصيب موفور، وتمنيا أن لو ماتا على عقائد عجائز نيسابور.

أمّا التأويل(١) فهو سبيل الويل، وليس هو أرفع شأناً ممّا سبق، وإن علا وبرق، فهو الداء العضال الذي جرّ الأمة إلى الفرقة والاقتتال، به استطال المماري وحرّف صفات الباري، وبه لويت أعناق النّصوص لتوافق مذاهب اللصوص.

فعِلم الكلام أبٌ، والتأويل ابنٌ، وجاء في الحِكم: «ومن يشابه أَبَهُ فما

---

(١) المقصود بالتأويل هنا هو التحريف، أو صرف النصوص عن ظواهرها ومعانيها.

ظَلم». ولذلك وجب التحذير منه وبيان خطره وعاقبته، وهذا من باب قول الشاعر:

عرفت الشرّ لا للشرّ ولكن لتوقّيه ومن لم يعرف الخير من الشرّ يقع فيه

وهذا الكتاب تناول فيه مؤلفه «علم الكلام والتأويل» بأسلوب علمي رصين ومتين، فهو ليس بالمطوّل الممل ولا بالمختصر المخلّ، بل وسط دون شطط، كما قيل:

خير الأمور الوسط الوسيط وشرها الإفراط والتفريط

هذا، وقد يسّر الله لي خدمة هذا الكتاب مع اعترافي بالتقصير وعدم إعطائه حقّه، وأسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن ينفع به مؤلّفه، ومحققه، وناشره، وقارئه، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أبو عبدالرحمٰن سعيد معشاشة
الجزائري

ليلة الرابع من شوال من سنة عشرين
وأربعمائة وألف من هجرة
الرسول صلى الله عليه وآله
وصحبه ـ بمسجد الإمام البخاري -
(معهد الإمام البخاري رحمه الله تعالى).

ترجمة المؤلف
محمد صديق حسن خان

المؤلف أعرف بنفسه من غيره ولذلك قدّمت ترجمته لنفسه على غيره، فهو يعرف ماذا حدث له في صباه، وكيف تعلّم، وكيف دخل معترك الحياة، ونظراً لكلّ هذا فإننا نترك المجال لصاحب الشرح كي يعرفنا بنفسه بأسلوبه الشيق الجذّاب، كما هو دأبه في مصنّفاته وشروحاته.

قال المؤلف رحمه الله في كتابه «التاج المكلّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأوّل»(١) معرفاً عن نفسه ما يلي:

أبو الطيب صدّيق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، نزيل «بهوپال» عفا الله عن معاصيه، وجعل مستقبله خيراً من ماضيه.

نسبه ينتهي إلى الإمام الشهيد حسين السّبط الأصغر بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ولد سنة ١٢٤٨هـ يوم الأحد، لعلّه التاسع من شهر جمادى الأولى(٢).

نشأ بموطنه بلدة «قِنّوج» وهي من أسنّ [أقدم] بلاد الهند وأعظمها،

---

(١) التاج المكلل: آخر ترجمة.

(٢) وتوفي رحمه الله ليلة الخميس ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٧ هجرية، الموافقة ٣٠ فبراير سنة ١٨٩٠ ميلادية، وسنّه إذ ذاك ٥٩ سنة و٣ اشهر ودفن ببهوپال.

ذكرت ترجمتها [تاريخها] في «حظيرة القدس» و«رياض المرتاض» وذكرها العلامة المجد[1] في «القاموس» وشارحها السيد المرتضى في «تاج العروس».

وبالجملة قرأ «صاحب الترجمة» القرآن على معلّمي بلده، والمختصرات من فنون شتّى على جماعة من أعيان نواحيها وعلماء ضواحيها، ومختصر المعاني على أخيه المرحوم السيد العلّامة أحمد بن حسن[2]، المتخلص بالعرشي المالك لأزمة المنطوق والمفهوم، رحمه الحي القيوم، ثمّ ارتحل إلى مدينة «دهلي» قاعدة المملكة الهندية ودار خلافته الثنية، فلقي بها عصابة من العلماء، ودار على جماعة من مشائخها النبلاء، فقرأ سائر الفنون من العقليات والنقليات والأدب والعربية، وأخذ هناك من فاضلها الفهّامة، المشهور بالشيخ المفتي «محمد صدر الدين خان»[3] صدر الصدور، تلميذ أبناء مسند الوقت «الشيخ الأجل أحمد ولي الله المحدث الدهلوي»[4] المبرور، وأجازه إجازة عامة تامّة للعلوم كلّها عقليها ونقليها.

ثم عاد إلى «قنّوج» وسافر إلى «بهوپال» طلباً للمعيشة، فأخذ ههنا عن الشيخ القاضي حسين بن محسن السبيعي[5]، وأخيه المرحوم الشيخ

---

(١) أي الفيروز آبادي.

(٢) ولد سنة (١٤٤٦) هـ وتوفي سنة (١٢٧٧) هـ من مصنفاته: الشهاب الثاقب [معجم المؤلفين (١/١٢٣)، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٧/٨٩٧، ٨٩٨)].

(٣) ولد سنة (١٢٠٤) هـ وتوفي سنة (١٢٨٥) هـ من مصنّفاته: منتهى المقال في شرح حديث: «لا تشد الرّحال»، الدرّ المنضود في حكم امرأة المفقود، [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٧/٩٩٢)].

(٤) ولد سنة (١١١٤) هـ، وتوفي سنة (١١٧٦) هـ من مصنفاته، الفوز الكبير في أصول التفسير، حجة الله البالغة وغيرها [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٦/٨٥٨، ٨٥٩) معجم المؤلفين (٤/٧٦)].

(٥) ولد سنة (١٢٤٥) هـ بالحديدة باليمن في وتوفي سنة (١٣٢٧) هـ ببهوبال بالهند كان من العلماء الزهاد [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٨/١٢١٤، ١٢١٦)].

زين العابدين[1]، تلميذي الشيخ محمد بن ناصر الحازمي الشريف[2]. الآخذ عن العلامة الشوكاني. ودرس قليلًا، وصنّف كثيراً، وأحاط بالفنون المتداولة وغيرها من الشّاذة الفاذّة علماً، وحصل منها على أوفر ونصيب أجمع، وأجاز له مشايخ آخرون، منهم الشيخ المعمر عبدالحقّ الهندي[3] المتوفى بمنى في سفر الحج في سنة ١٠٥٢هـ، المجاز عن الإمام الرباني قاضي القضاة[4] محمد بن الشوكاني اليماني رضي الله عنه مواجهة ومشافهة في

---

(١) ولد بالحديدة باليمن ومات بالهند سنة (١٢٩٧) هـ، له عدّة مصنفات منها: شرح المناسك، ومجموع الفتاوى [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٩٧٨/٧)].

(٢) توفي سنة (١٢٨٣) هـ باليمن، من مصنفاته: فتح المنّان في ترجيح الراجح وتزييف الزائف من صلح الإخوان، والفواكه العذاب. (معجم المؤلفين ٧٤٧/٣).

(٣) ولد سنة (٩٥٨) هـ بدلهي بالهند، وتوفي سنة (١٠٥٢) له مصنفات تزيد على الخمسين، وكان كثير المطالعة حتى أنه احترقت عمامته غير مرة بالسراج الذي كان يجلس أمامه للمطالعة، فما كان ينتبه له حتى تتصل النار ببعض شعره [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٥٥٤/٥)، ومعجم المؤلفين (٥٨/٢)].

(٤) سئل الشيخ ابن عثيمين: ما حكم التسمّي بقاضي القضاة؟

فأجاب قائلًا: قاضي القضاة بهذا المعنى الشامل العام لا يصلح إلّا لله عزّ وجل فمن تسمّى بذلك فقد جعل نفسه شريكاً لله عزّ وجل فيما لا يستحقه إلّا الله عزّ وجل، وهو القاضي فوق كل قاضي والحكم، وإليه يرجع الحكم كله، وإن قيّد بزمان أو مكان فهو جائز، لكن الأفضل أن لا يفعل لأنه قد يؤدي إلى الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وإنّما جاز هذا لأنّ قضاء الله لا يتقيد، فلا يكون فيه مشاركة لله عزّ وجل وذلك مثل قاضي قضاة العراق، أو قاضي قضاة الشام، أو قاضي قضاة عصره.

وأمّا إن قيّد بفنّ من الفنون فبمقتضى التقيد يكون جائزاً. لكن إن قيّد بالفقه بأن قيل: عالم العلماء في الفقه سواء قلنا بأن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حدّ قوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» أو قلنا بأنّ الفقه معرفة الأحكام الشرعية العملية كما هو المعروف عند الأصوليين صار فيه عموم واسع مقتضاه أن يرجع النّاس كلّهم في الشرع إليه، فأنا أشك في جوازه والأولى التنزّه عنه. وكذلك إن قيّد بقبيلة فهو جائز ولكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف حتى لا يغتر ويعجب بنفسه ولهذا قال النبي ﷺ للمادح: «**قطعت عنق صاحبك**» اهـ (المجموع الثمين ٢٣١/١).

بلده صنعاء اليمن، والشيخ الصالح محمد يعقوب الدهلوي[1]، أخو الشيخ محمد إسحاق[2]، المهاجران إلى مكة، المتوفيان بها، سبطا الشيخ المفسّر العلّامة المحدّث عبدالعزيز الدهلوي[3] بن الشيخ أحمد ولي الله.

وكنت كثير الاشتغال بمطالعة الكتب وكتابة الصحف من أيّام كوني في المكتب فطالعت زبراً عديدة، وبيّنات كثيرة، وكتباً غزيرة، وأسفاراً غريبة وشهيرة من كل فن ملائم وعلم أجنبي، وحصلت منها على فوائد شتى، لا تكاد تنحصر، وألفت في زمان الطلب رسائل ومسائل، وحررت تراجم كثيرة لكتب الدين باللسانين.

وأوّل ما صنفت، ترجمة المراح في التصريف، وذلك سنة ١٢٧٠هـ، ثم تتابعت التواليف وبلغت إلى حال تحرير هذا الكتاب «تسعة وخمسين مؤلّفاً» ما بين مطوّل منها ومختصر، عربياً وفارسياً، وطبعت واشتهرت. وحبّب إليّ علم الأدب والعربية والشّعر، والتاريخ والتصوّف، ونفر الطبع الكليل والخاطر العليل عن معقولات الفنّ ـ نفرة زائدة ـ مع كوني محصلاً لها بتمامها، وعوض الله سبحانه عنها علم «الكتاب والسنّة» وما إليهما، فاشتغلت به شغلة لم تترك لغيرهما موقعاً، ولا لعلم من علوم الدنيا وفنون أهلها مسرحاً ومنزعاً، حتى أخرجت مؤلفات زمان الطلب الأول عن عداد التآليف، وجعلت مكانها مصنّفات «الحديث والقرآن»، وهي ممتعة نافعة شائعة مقبولة عند أولي الطبع اللطيف، ولله الحمد على ذلك. وقد ذكرت ما قرأت من الكتب، وما كتبت، وما صنفته وما ألفت من المصنّفات المختصرة والمطوّلة في تراجمي في غير هذا الكتاب ـ جملة وتفصيلاً ـ

---

(١) ولد سنة (١٢٠٠) هـ بالهند، وتوفي سنة (١٢٨٢) هـ بمكة [انظر ترجمته في الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١١٣٨/٧)].

(٢) ولد سنة (١١٩٦) هـ، وقيل سنة (١١٩٧) هـ بدلهي بالهند، وتوفي بمكة سنة (١٢٦٢) هـ [الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٩١١/٧)].

(٣) ولد سنة (١١٥٩) هـ، وتوفي سنة (١٢٣٠) هـ، له عدّة مصنفات منها: تفسير القرآن الكريم، والفتاوى في المسائل المشكلة وغيرها [(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٠١٥/٧، ١٠١٩)].

وألحقت جدول ذلك في خاتمة كتاب «حضرات التجلّي من نفحات التحلي والتخلّي[1]» تكميلًا.

وقد سارت بها الركبان في حياتي إلى أقصى المدائن والبلاد، وأكب عليها جماعة عظيمة من علماء العصر والزمان، وعصابة كبيرة من أمثال الفضلاء والأمراء أصحاب الحديث والقرآن والأدب والبيان، وقرظ عليها جمع جم من فضلاء العصر، وطبقة عظيمة من نبلاء الدّهر إلّا من حسد وطبع على اللدد. وانتشرت تلك الدفاتر بعد الطبع الجميل والتشكيل الجليل في بلاد الهند وبهوپال المحمية، ومصر القاهرة، وقسطنطينية إلى الحرمين الشريفين - زاد الله شرفهما - وإلى البلاد الحجازية كلّها من أبي عريش، وصنعاء اليمن، وزبيد، وبيت الفقيه، وحديدة، وعدن، ومراوعة، وبغداد، ومصر، والشام، والإسكندرية، وتونس، وبيروت، وإسلامبول، والقدس، والجزائر، وبلغار، وقازان، وجميع بلاد الترك والفرس، كأصفهان، وطهران، وغير ذلك، وأخذ الملوك والأمراء، والرؤساء، والوزراء، والعلماء الموجودون الآن في حدود تلك البلدان على أيدي العظمة والإجلال، والقبول والإقبال، وعرفها كلّ إنسان، ووردت بذلك كتب ومهارق جمة من فضلاء الأعصار والأمصار، حتى اجتمع شيء واسع من ذلك عندي، وجمع منها العلامة سليم فارس[2] أفندي بن أحمد فارس - صاحب الجاسوس - مدير «الجوائب» كتاباً لطيفاً يختصّ بالتقاريض، وسمّاه «قرّة الأعيان ومسرة الأذهان» ونشرها في البلاد ووزعها على العلماء الأمجاد، وترجم له بعض العلماء المرحومين، وسمّاه «قطر الصيّب في ترجمة الإمام أبي الطيّب».

وورد في تاريخنا هذا، وهو غرة ربيع الآخر من شهور سنة **١٢٩٨**، كتاب من مدير الجوائب، يطلب منا تلك «الخطوط» للطبع على هيئة الكتاب، وكل ذلك نعمة جليلة من الله الكريم الوهّاب، وسعادة فخيمة قلّ

---

(١) طبع بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة (١٢٩٦) من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

(٢) توفي سنة (١٢٨٨) هـ (معجم المؤلفين ٢٨١/١).

من يظفر بها من أهل العلم وأصحاب الألباب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ وإن كنت أنا عند نفسي أحقر من كلّ حقير وأحوج إلى عفو ربّه وصونه وعوضه من كل فقير، ولست بأهل لبعض ذلك فضلًا عن كلّه ولكن النعم الربّانية تُلحق السّافل بالعالي، وتلصق الخالي بالمالي، ويحيي العظم.

وإني مع انجماعي عن الناس، وعدم المبالاة بسفهائهم والأكياس، تعتريني عداوة إلى الحسّاد وتعترضني بغضاؤهم من غير وجه يراد، وأنا في غفلة وذهول وجهل عن ما هنالك، ولكنّ الله سبحانه يحفظني في كل حين وأوان من سوء إيرادات هؤلاء، ويصونني بمحض رحمته وعفوه عن جملة الابتلاء والمحن، إذا لم تؤثر فهي من الله إحسان، وأيّ إحسان لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك يا رحيم يا رحمٰن، اللهم إنّ أعدائي بلغوا من عداوتهم لي غاية، وإن حسّادي بالغوا في أذاي إلى نهاية، وإنّي لا أقدر على دفعهم عنّي، ولا أهتدي إلى الصّون منهم سبيلًا، وأنت تعلم عجزي وضعفي، فكنت أنت الرقيب عليهم، فعوضني رغماً لأنوفهم جميلًا، واحفظني عن شرورهم بما تحفظ به عبادك الصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه يا أرحم الراحمين فإني برحمتك أستغيث ـ يا حيّ يا قيّوم ـ وليس لي ملاذ، ولا منجًا، ولا مفزع، ولا مهرب، ولا مأوى غيرك عند أحد كان في هند أو في روم(١).

هذا، وأني منذ استسعدت بمدارك علوم الحديث والقرآن، واختصصت

---

(١) قال صاحب الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (١٢٤٨/٨) عن معاناة صديق حسن خان ما يلي:
فقد وشيت له سعايات، ودبّرت عليه مؤامرات، وأحتقد عليه وكيل الحكومة الإنجليزية لدى الإمارات الهندية، فاتهمه بأنه حرّض في بعض مؤلفاته على الجهاد وأنّه مشمر عن ساق الجدّ والاجتهاد في نشر المذهب الوهابي في الهند، وهو مذهب اتهم أصحابه بالخروج على الحكومة الإنجليزية وعرفوا بنزعتهم إلى الجهاد، واعترض عليه بأنه ألزم «شاهجهان بيكم» ملكة بهوبال بالحجاب الشرعي... وتنكرت له الوجوه، وشمت به الأعداء وهو صابر محتسب...

بخدمتهما الشريفة من بين الأقران والأعيان، واجتهدت رأيي في العمل بالدليل و«تركت التقليد» في جانب، لما أنّه مجرّد قال وقيل، وأخرجت كتب الرأي والفروع من بيتي، وشحنت عوضها داري بالكتب من دواوين السنّة وشروحها وحواشيها، وكتب الأصول، والتفسير، والأدب، والسلوك، والتاريخ، وما إليها ممّا يعينني على تلك المقاصد الحسنة.

وقد صبرت - بحمد الله تعالى - بقلبي منجمعاً عن بني الدنيا وأهلها وفقهائها، وأحببت بصميم جناني وقوّة إيماني العزلة والاستغناء عن أمرائها ورؤسائها، ولم أقف قطّ على باب أمير ولا فقير لغرض من الأغراض، ولا لعرض من الأعراض، بل اشتغلت في جميع أوقاتي - مذ شعرت - بالعلم تصنيفاً وتأليفاً، وبكتبه تصحيحاً وتنقيحاً، مؤثراً للأدلة على الآراء، ومختاراً للحديث على الأهواء.

يا حبّذا علم الحديث، فإنّه	علم يؤيد محكم القرآن
علم به نطق النبيّ وخصه	بالفضل «أحمد» ناسخ الأديان
يشفي القلوب بنوره وبيانه	وبدرسه ويزيد في الإيمان
لا تعدلنّ إلى سواه فإنّه	كهف الهدى وسفينة الطوفان
وإذا تقابلت الخصوم فإنّه	سيف يفلق هامة الطغيان

وقد منّ الله سبحانه، وله عليّ المنّة بتيسير الكتب الحديثية السّلفية، ما لم يكن بحساب، حتى وصل إليّ في شهري هذا صفر من شهر سنة ١٢٩٨، من مكة المكرمة - زاد شرفها - كتاب «بلوغ المرام» من أدلة الأحكام، عليه قراءة جمع جمّ من حفّاظ الإسلام والعلماء الأعلام، منهم الشيخ العلّامة يوسف بن شاهين قطلوبغا، سبط الحافظ ابن حجر، والشيخ الحافظ عبدالباسط كاتبه وغيرهما، وقد كتب على هامش الجزء الثاني منه ما لفظه: نقلته من خط الحافظ ابن حجر رضي الله عنه وهؤلاء الجماعة قد قرأوه على شيخ الإسلام زكريّا الأنصاري، تلميذ المؤلف، رضي الله عنهم أجمعين.

وكذلك وصل معه كتاب «تعجيل المنفعة» برجال الأربعة، يعني

الموطأ، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والمسند الذي خرّجه الحسين بن محمد بن خسرو من حديث الإمام أبي حنيفة، رحمهم الله تعالى. وقد قوبل على نسخة كانت بقلم الحافظ السّخاوي تلميذ المؤلّف، والسّخاوي قرأه على شيخه الحافظ ابن حجر، فللّه الحمد على ذلك[1].

وكلّ حين يمدّني ربّي سبحانه وتعالى بأمثال هذا الإمداد، ويسوق إليّ بكرمه ومنّه ما لا يأتي عليه الحصر والتعداد من صنوف النّعم، والتفضل والجود رحمة منه واسعة على عبده وابن أمته مرغماً للحسود، ويحفظني من الأعداء ومكاره الزمان، ويشملني بأنواع من الصون والعون والإحسان، فإنّهم عدوّ لي إلّا رب العالمين، وهو حسبي وكفى من شرورهم في الدّنيا والدين. هذا، ولمّا أمطيت مطيّة الهمم، ووجهت وجه عزمي إلى قبلة الأمم، ورعيت بالأحداق حدائق تلك المسارح، وقد سألت بأعناق المطايا الأباطح، لم أزل أدأب في التّسيار إلى أن نفضت عن مناكب المحن غبار الأسفار، فنزلت بجوار بيت الله الحرام، وتطيبته بمسك تراب الحطيم والمقام، وأنا «أبو الطيب» المستهام، وقلت:

بمكة لي غناء ليس يفنى ... جوار الله والبيت المعظم
ففيها كيمياء سعادة، قد ... ظفرت بها من الحجر المكرم

فلمّا أفضت من تلك المناسك بتلك البقاع، طفت بها بل بالمسرة

---

(١) بلغ ما بلغ في العلم والجدّ والاجتهاد والتأليف العلامة صدّيق حسن خان ولم يكن يمتلك لا «بلوغ المرام»، ولا «تعجيل المنفعة»، ولا غيرها من الكتب المشهورة إلّا القلّة القليلة، حتى تفسير ابن كثير لم يكن يمتلكه، ومات وهو يتمنى أن يحصل عليه، فقد قال في «الإنتقاد الرجيح» عندما أراد أن ينقل كلام ابن كثير في تفسير آية الاستواء: «ولم أقف على كلامه على ذلك من الأعراف لعدم تيسّر ذلك المجلد، فمن وقف عليه فليلحق ذلك الكلام في هذا المقام بقدر ما يلائم المرام».

أمّا في هذا الزمن فإنّ المكتبات العامة والخاصة تعجّ بهذه الكتب وأمثالها، وبعضها يوزّع مجّاناً على طلاب العلم، ولكن قلّت الهمم، وفترت العزائم، وصارت هذه الكتب زينة على الرفوف بطبعاتها المميزة وأشكالها الفاخرة، بل صار أصحابها ـ إلّا ما رحم ربّي ـ يتفاخرون باقتنائها وشرائها، أمّا قراءتها والاستفادة منها فكبّر عليها أربعاً من. . .

طواف الوداع، وخرجت من أحب البلاد، والله لا يدعو إلى داره إلّا من استخلصه من العباد.

وما درى البيت أنّي بعد فرقته ما سرت من حرم، إلاّ إلى حرم

قاصداً مسجد طيبة المطيبة، وارداً موارد آمالي المستعذبة، شعر:

وقد قيل في زُرْق العيون شآمة وعندي أنّ اليمن في عينها الزرقاء

إلى أن لمعت أنوار الهدى من سماء العلى وقباب الحمى:

لمهبط الوحي حقّاً ترحل النجب وعند هذا المرجى ينتهي الطلب

فنزلت اعتنق الأراك مسلماً، وكدْت ألثم أخفاف الرواحل إذا وصلتني إلى أعذب المناهل.

فإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهنّ على الرجال حرام
قربننا من خير من وطي الثرى فلها علينا حرمة وذمام
فحللت في أرفع مقام تفا خر فيها الرؤوس والأقدام

فنزعت عيون أهلي في روضة ذات أنوار، وعملت ـ وهي من رياض الجنّة، ـ أنّي لا أدخل بعدها النّار، وأنا الآن منتظر لألطاف ربّي، وهو في كلّ الأمور حسبي، أن يعدني لجواره، واجتلاء نور حبيبه ومختاره به ـ إليه متوسلًا، وفي نيل رجائي متوكلًا.

ثم إنّي لم أمدح في عمري هذا أحداً من الأمراء طمعاً في صلته وملازمته كما هو عادة الشعراء، وإنّما نظمت الشعر العربي والفارسي، إذا طاب الوقت وطاب الهواء.

وغالب نظمي في التحريض على اتباع «الكتاب والسنّة» لأنّهما يكشفان عن كلّ مدلهمة ودجنة، وفي «ذمّ التقليد» الشؤوم، و«الابتداع» المذموم.

حسبي بسنّة «أحمد» متمسكاً عن كلّ قول في الجدال ملفق
أورد أدلتها على أهل الهوى إن شئت أن تلهو بلحية أحمق

واتـرك مـقـالاً حـادثـاً مـتـجـدّداً من محدث متشدّق متفيهق
ودع الـلـطـيـف ومـا بـه قـد لـفـقـوا فهو الكثيف لدى الخبير المتقي
ودع الـمـلـقـب حـكـمـة فـحـكـيـمـهـا أبداً إلى طريق الضلالة يرتقي
قـد جـاء عـن خـيـر الـبـريـة «أحـمـد» أنّ البلاء موكل بالمنطق
والله! مـا كـان الـجـدال بـعـصـره لا في رُبى «بدر» ولا في «خندق»

وأنا راغب في مجالسة أهل العلم والأدب، ومذاكرتهم وملاقاتهم، ومن بآدابهم أتأدب وأتدرب. وابتليت بقدر الله وقضائه بفصل الخصومات وسماع المنازعات، وإصدار الأحكامات، وإيراد المثالات من غير اقتراح منّي ولا اختيار، ولا بدّ واقع ما قضى الرحمٰن من الأقضية والأقدار، ومع ذلك لم أدع جهدي الاشتغال بالعلم، وإن كان اشتغالي الآن بالنسبة إلى ما كان كلا شيء. وكان ابتلائي هذا بذاك، وأنا بين الثلاثين والأربعين من العمر المستعار، ووجدت علماء عصرنا هذا من أهل الهند اتخذوا علوم الفلسفة وفنون اليونان، وهم معرضون عن الاشتغال بالحديث والقرآن. ورأيت من بينهم أقرب إلى الدين واتباع سنة سيد المرسلين، قوماً ينتسبون إلى إرادة «السيّد أحمد البريلوي»(١) من مريدي الشيخ العلّامة عبدالعزيز المحدث الدهلوي(٢)، فإنهم على هدى مستقيم وطريق قويم، وهدى الله بهم طوائف كثيرة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكن الآن أكثرهم درجوا في خبر كان، وذهب ما كان بهم من العمل والعلم والكمال، وعاد إلى بقيتهم النقصان، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو المستعان في كل آن.

وكذلك آل حال الزمان في مدائن أخرى من البلاد الإسلامية التي كانت ديار العلم وبقاعها، فإن قصارى همم علمائها «الجمود على التقليد»

---

(١) ولد سنة (١٢٠١) هـ كان مجاهداً شجاعاً فقد تمكن من تحرير «بشاور»، مات في معركة «بالاكور» ضد الإنجليز والهندوس رحمه الله رحمة واسعة [الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٨٩٩/٧، ٩٠٢)].

(٢) سبقت ترجمته.

والاشتغال بعلوم الأوائل من أهل يونان، وفلسفتهم المبنية على خطوات الشيطان، وعدم الالتفات إلى علوم «الحديث والقرآن» مع تعصب كثير لأحبارهم والرهبان، وردّ وتعقب وجرح وقدح على الأكابر والأعيان، ومكابرة وتعسف وحسد وبغض وحقد مع أهل الحق والإيقان وأصحاب الإيمان والإحسان، وهذا لا شك من أشراط الساعة الكبرى.

وكذلك صار حال أهل الدّول الإسلامية، وأولي الأمر وولاة العصر في هذا الزمان، فإنّهم كلّهم - إلّا ما شاء الله تعالى - سفهاء، وحمقاء العقول لا عقل لهم ولا دين ولا فكرة في أمر دنياهم، ولا عبرة من حال الآخرة. لا يفقهون حديثاً، ولا يفهمون شيئاً، ولا يهتدون سبيلًا، حتى صاروا لكع بن لكع، وعادوا لا يعرفون الوتر من الشفع، والجهل أحب إليهم من العلم بكثير، وهم عن أهل العلم على مدّ بعيد ومسير كبير. ومع ذلك يرون أنفسهم أعقل أهل زمانهم، وينظرون إلى كلّ أحد بعين الازدراء، وفي ذلك عبرة للمعتبرين، وعظة بليغة لأهل الدين، وإنّما العاقبة للمتقين، والذي غمني أني أظهرت في زمان خلا عن وجود العلم والعلماء.

وبرزت في أناس هم الأوغاد السّفهاء، وولدت في عصر طغى فيه أهل البدع على أهل الأتباع، وخفي فيه أصحاب الفضائل والكمال، ومن كان منهم نادراً فله الصداع، وجئت في دهر غلب على أهله حب المال على الكمال، وفاق شره على خيره بلا احتيال، وطمس فيه أعلام الدّول الإسلامية، وظهر فيه رايات الفرق الكفرية، وكل حين يزداد ذلك قوة ورفعة، ويندرس معه الإسلام وأهله.

والله أعلم ماذا يكون في ما يستقبل من الزمان، وإلى ما يرجع مآل نوع الإنسان، فقد بَعُد عهد النبوة، وظهرت الفتن، وعمّت المحن، وذهبت الفتوة والمنن، وأطلق أفراخ الفلسفة وأوساخ الدهرية ألسنتهم طعناً في الدين وهضماً للمسلمين وفشى الكذب، وأشرب في قلوب الخلق حب العجل، ترى النّاس زيهم زي الأحباء، وهم ببواطنهم أعدى الأعداء، ميلهم في تكثير المآكل والمشارب، والملابس والمراكب والمساكن، والمتنزهات

وتحسينها فوق ميلهم إلى تحصيل العلم وكسب الفرص والكمالات إلى أن رفضوا ما كان عليه سلفهم وأئمة خلفهم من العض بالنواجذ على الدين، والاعتصام بمشاعر الإسلام وشعائر الإيمان، وتكميل منازل الإحسان، وهداية الجيران، وإصلاح ذات بين الإخوان، بإيثار أوامر الملّة ونواهيها، وإحكام أحكام النّحلة وغاياتها ومباديها، والاهتمام في محو آثار الظلام، المؤدية إلى ذلة، وقلّة، وعلّة.

وقد استعبد ولاة الزمان هؤلاء كلّهم، حتى صاروا كالأرقاء لهم والمملوكين، لا يقدرون على شيء من مخالفتهم وخلافهم في أيّ أمر من أمور الدنيا والدين.

وقد أظلّ زمان لم يبق فيه لمؤمن بالغيب وباليوم الآخر مقرّ يقرّ فيه، ومفرٌ يفرّ إليه، ومأمن يأمن فيه، ومعوّل يعول عليه.

حتى مكة والمدينة: فإنّ فيهما من المحن لمن يعمل بالأدلة، ولا يقول بتقليد الضالة المضلة، ما لا يقادر قدره، بل فيهما زيادة على غيرهما من البلاد الهندية، فإنهما مع كونهما بأيدي البريطانية، آمنة مطمئنة لقوم مسلمين. وسمعت أن الحال هكذا في سائر بلاد المغرب من ممالك الشام والروم وسائر أقطار الأريسيين، فإنّ المتبع للسّنن والعامل بالدليل، والمتمسك بالحديث، والمعتصم بالكتاب، والتارك للتقليد، لا يستطيع أن يقيم أو يقوم بين أظهرهم، ويفوه وينطق ويفضي بما يجب عليه من أمرهم ونهيهم.

ولا بدّ للهجرة من دار إلى دار من الأمان، والأمن قد ارتفع في هذا الزمان من كل مكان، وقد بلغني عن بعض الرواة الثقاة أنّ بعض من بمكة من الفقهاء الهندية يفتي بقتل العَمَلَة بالأدلة والفَعَلَة للسنّة، ويقول: يقتلوا هؤلاء سياسة، وهذا من الجهل والظلم والضلالة بمكان لا يخفى، ولا ينطق به لسان أحد ممن له أدنى حظّ من علم، فضلًا عمن يعرف الشرع ويتلبس به، وإنّما يقول به وبمثله ونحوه من أعمى الله بصر بصيرته، وذهب بنور الإسلام من قلبه وقالبه برُمته.

ويا للّه العجب، يقتل رجل، يقول: ربّي الله، ونبيّي محمد، وديني الإسلام، ويهدر دمه المعصوم، ولا يسفك دم من يقلّد الآراء، ويتبع الأهواء، ويحدث المحدث ويجتهد في البدعات، ويجدد المهلكات، ويحب الدنيا، يؤثرها على الآخرة والدين، ويذر سنّة سيد المرسلين، ويحطّ على أهل الكتاب والسنّة، ويحمي حمى الضلالة والبدعة، ويحرض الحكام على أذى المتبعين، ويكذب عندهم بما يسوّل له الشياطين، فإلى الله المشتكي... ثم إلى الله المشتكى.

وعلى الجملة، فزماننا الحاضر، زمان شرّ، وشر زمان(١)، ومكاننا نموجود، أضرّ مكان وأسوأ ديار الإمكان... فأين المفرّ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ما صارت إليه الحال، وآل إليه المآل، شعر:

---

(١) سئل الشيخ ابن عثيمين عن حكم سبّ الدهر؟ فأجاب قائلًا: سب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز مثل أن يقول: تعبنا من شدة الحرّ وما أشبه ذلك، لأن الأعمال بالنيات، واللفظ صالح لمجرد الخبر.

القسم الثاني: أن يسبَّ الدهر على أنّه هو الفاعل، كأن يقصد بسبّه الدهر أنّ الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشرّ، فهذا شرك أكبر، لأنّه اعتقد أنّ مع الله خالقاً حيث نسب الحوادث إلى غير الله.

القسم الثالث: أن يسب الدّهر وهو يعتقد أنّ الفاعل هو الله ولكن يسبه لأنه محل هذه الأمور المكروهة فهذا محرّم، لأنه منافٍ للصبر الواجب وليس بكفر، لأنه ما سب الله مباشرة، ولو سب الله مباشرة لكان كافراً. اهـ (المجموع الثمين ١/٧٣).

أقول: إنّ حالنا اليوم ليس أقل سوءًا من الحال الذي ذكره صديق حسن خان، فالحكام اليوم لا ينهون عن المنكر، والعُلماء الربانيون يُقبضون بين الفينة والأخرى، والفتن في أوجّ اشتعالها، وممّا زاد الطين بلّة والبليّة بلاءً، أن أدعياء العلم، الصغار، الذُبابيون، طالت أعناقهم واستطالت، فليس لهم شغل إلّا الطعن في الدعاة والنيل منهم، فقالوا عنهم: لا يفهمون الواقع، وقالوا عنهم: خوارج، وقالوا عنهم: تكفيرية، وقالوا عنهم: عندهم خلل في المنهج ويجب التحذير منهم، وهم ـ والذي فلق الحب والنوى ـ أولى بأن يحذّر منهم:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كِلاَهَا وحتى استامها كل مفلس

إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

والعفو يرجى من بني آدم فكيف لا يرجى من الرب
فإنه أرأف بي منهم حسبي به حسبي به حسبي

وإنّي الآن أسأل الله العظيم الذي لا إله إلّا هو رب العرش العظيم، أن يحسن ختامي، وينيلني من خير الدنيا والآخرة مرامي، ويسددني في الأقوال والأفعال والأحوال كلّها، ويحفظني عن الشرور وأهلها دقّها وجلّها، وينزع حبّ الدنيا وأبنائها من قلبي وفؤادي وجناني، ويخرجه من صميم خلدي، وقعر صدري، وعقدة لساني، حتى أنظر إلى الحقيقة، وأفوز بمعارف العرفاء بنيل دقائق الطريقة.

أنا راض بما قضى واقف تحت حكمه
سائل أن أفوز بالـ خير من حسن ختمه

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾، وأسألك اللّهم العفو والعافية في الدنيا والدين. وأقول: اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين وشفيع المذنبين، وآله وصحبه الأكرمين، ما ذرّ شارق ولمع بارق[١]. اهـ.

مؤلفاته:

- أبجد العلوم[٢].
- إتحاف النبلاء المتقين بإحياء مآثر الفقهاء المحدّثين[٣].

---

(١) التاج المكلّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأوّل لصديق حسن خان، آخر ترجمة.
(٢) طبع ببهوپال.
(٣) غير مطبوع.

- الاحتواء على مسألة الاستواء[١].
- الإدراك لتخريج أحاديث الإشراك[٢].
- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي السّاعة[٣].
- أربعون حديثاً في فضائل الحج والعمرة[٤].
- إفادة الشيوخ بمقدار النّاسخ والمنسوخ[٥].
- الإكسير في أصول التفسير[٦].
- إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة[٧].
- الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح[٨].

حرف الباء الموحّدة:

- بغية الرائد في شرح العقائد[٩].
- البلغة في أصول اللّغة[١٠].
- بلوغ السّول من أقضية الرسول[١١].

---

(١) باللغة الفارسية (غير مطبوع).
(٢) غير مطبوع.
(٣) طبع ببهوپال والجوائب سنة ١٢٩٣ هجرية.
(٤) طبع ببهوپال.
(٥) غير مطبوع.
(٦) غير مطبوع.
(٧) مطبوع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٨) طبع بدار ابن حزم بتحقيقي.
(٩) غير مطبوع.
(١٠) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية، وبالجوائب بالآستانة سنة ١٢٩٦ هجرية، وبدار البشائر بيروت سنة ١٩٨٨م.
(١١) غير مطبوع.

حرف التاء الفوقية:

- تخريج الوصايا من خبايا الزوايا[١].
- التاج المكلل من جواهر مآثر الآخر والأول[٢].
- تميمة الصّبي في ترجمة الأربعين من أحاديث النبيّ[٣].
- تكحيل العيون بتعاريف العلوم والفنون[٤].

حرف الثاء المثلثة:

- ثمار التنكيت في شرح أبيات التثبيت[٥].

حرف الجيم:

- الجنة في الأسوة الحسنة بالسنّة[٦].

حرف الحاء المهملة:

- حجج الكرامة في آثار القيامة[٧].
- الحرز المكنون من لفظ المعصوم المأمون[٨].
- حصول المأمول من علم الأصول[٩].

---

(١) مطبوع مرات عديدة.
(٢) المطبعة الهندية بمباي سنة **١٣٨٣** هجرية.
(٣) غير مطبوع.
(٤) غير مطبوع.
(٥) بهوپال سنة **١٢٩٠** هجرية.
(٦) غير مطبوع.
(٧) طبع ببهوپال بالهند، وبالجوائب سنة **١٢٩٦** هجرية، ومصر سنة **١٣٣٨** هجرية.
(٨) طبع في مصر.
(٩) طبع بكانبور سنة **١٢٨٣** هجرية، وبيروت سنة **١٩٨٨**م.

- الحطة بذكر الصحاح الستّة[١].
- حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله في النسوة[٢].
- حضرات التجلّي من نفحات التجلّي والتخلّي[٣].

حرف الخاء المعجمة:

- خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان[٤].
- خلاصة الكشاف[٥].

حرف الدال المهملة:

- دليل الطالب على أرجح المطالب[٦].
- الدين الخالص[٧].

حرف الذّال المعجمة:

- ذخر المحتي من آداب المفتي[٨].

حرف الراء المهملة:

- رحلة الصديق إلى البيت العتيق[٩].

---

(١) طبع بالجوائب سنة ١٣٠١هـ، وبـ«عمّان» دار الفرقان سنة ١٤٠٩ هجرية.
(٢) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٨ هجرية.
(٣) طبع بالجوائب سنة ١٢٩٦ هجرية.
(٤) مفقود
(٥) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٦) مطبعة مدني، مصر سنة ١٣٧٩ هجرية.
(٧) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٨) طبالع بلكنهو سنة ١٢٨٩ هجرية.
(٩) طبع عدة مرات.

- الروضة الندية في شرح الدرر البهية[١].

- رياض الجنّة في تراجم أهل السنّة[٢].

- ربيع الأدب[٣].

- الروض البسّام[٤].

- الرحمة المهداة إلى من يريد زيادة العلم على أحاديث المشكاة[٥].

حرف الزاي:

حرف السين:

- السحاب المركوم في بيان أنواع الفنون وأسماء العلوم، وهو القسم الثاني من كتاب أبجد العلوم.

- سلسلة العسجد في ذكر مشائخ السند[٦].

- السراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجّاج[٧].

حرف الشين:

- شمع انجمن في ذكر شعراء الفرس وأشعارهم[٨].

---

(١) مفقود.
(٢) غير مطبوع.
(٣) مفقود.
(٤) طبع بدلهي.
(٥) غير مطبوع.
(٦) طبع ببهوپال سنة ١٣٠٢ هجرية.
(٧) بالفارسية (غير مطبوع).
(٨) غير مطبوع.

حرف الصاد المهملة:

حرف الطاء المهملة:

- طلب الأدب من أدب الطلب[1].

حرف الظاء المعجمة:

- ظفر اللاّضي بما يجب في القضاء على القاضي[2].

حرف العين المهملة:

- العبرة ممّا جاء في الغزو والشهادة والهجرة[3].
- عون الباري بحلّ أدلّة البخاري (أربع مجلدات)[4].
- العلم الخفّاق من علم الاشتقاق[5].

حرف الغين المعجمة:

- غصن البان المورق بمحسنات البيان[6].
- غنية القاري في ترجمة ثلاثية البخاري[7].
- الغنّة ببشارة أهل الجنّة[8].

---

(١) طبع مرات عديدة.
(٢) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٣) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٤) طبع ببولاق سنة ١٢٩٧ هجرية، وبدار الرّشد بحلب سنة ١٩٨٤ هجرية.
(٥) طبع عدّة مرات.
(٦) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية.
(٧) غير مطبوع.
(٨) طبع ببولاق سنة ١٣٠٢ هجرية.

حرف الفاء:

- فتح البيان في مقاصد القرآن[1].
- فتح المغيث بفقه الحديث[2].
- الفرع النامي من الأصل السّامي[3].

حرف القاف:

- قصد السبيل إلى ذم الكلام والتأويل[4].
- قضاء الأرب من مسألة النّسب[5].
- قطف الثمر من عقائد أهل الأثر[6].

حرف الكاف:

- كشف الالتباس عما وسوس به الخناس في ردّ الشيعة (بالهندية)[7].
- الكلمة العنبرية في مدح خير البرية[8].

حرف اللاّم:

- لفّ القماط على تصحيح بعض ما استعمله العامّة من المولّد والمعرّب من الأغلاط[9].

---

(١) طبع ببهوپال في أربع مجلدات وبالقاهرة في عشرة مجلدات سنة ١٣٠٢ هجرية، وبالمكتبة العصرية لبنان في خمسة عشر مجلد.
(٢) غير مطبوع.
(٣) غير مطبوع.
(٤) وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.
(٥) طبع بكانبور سنة ١٢٨٣ هجرية.
(٦) طبع بكانبور ثم أعيد طبعه سنة ١٤٠٤ هجرية بدار عالم الكتب (بيروت).
(٧) غير مطبوع.
(٨) غير مطبوع.
(٩) طبع ببهوپال سنة ١٢٩١ هجرية.

- لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان[١].

حرف الميم:

- مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السّلام[٢].
- الموائد العوائد من عيون الأخبار والفوائد[٣].
- مسك الختام شرح بلوغ المرام[٤].
- هلاك السعادة[٥].
- منهج الوصول إلى اصطلاح أحاديث الرسول (ﷺ)[٦].
- مراتع الغزلان في تذكار أدباء الزمان[٧].
- الموعظة الحسنة بما يخطب به في شهور السّنة[٨].

حرف النون:

- نشوة السّكران من صهباء تذكار الغزلان[٩].
- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام[١٠].
- النذير العريان من دركات الميزان[١١].

---

(١) طبع بالجوائب سنة **١٢٩٦** هجرية.
(٢) طبع بكانبور سنة **١٢٨٩** هجرية.
(٣) طبع ببهوپال سنة **١٢٩٨** هجرية.
(٤) غير مطبوع.
(٥) غير مطبوع.
(٦) غير مطبوع.
(٧) مطبوع بدار ابن حزم، بيروت.
(٨) طبع مرات عديدة.
(٩) طبع مرات عديدة آخرها في دار ابن حزم بيروت سنة **١٤١٩** هجرية.
(١٠) طبع مرات عديدة.
(١١) غير مطبوع.

حرف الواو:

- الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم المنثور منها والمنظوم، وهو القسم الأوّل من كتاب أبجد العلوم.

حرف الهاء:

- هداية السّائل إلى أدلّة المسائل[1].

حرف الياء:

- يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) غير مطبوع.

(٢) طبع ببهوپال سنة ١٢٩٤ هجرية. ثم بتحقيق حسن الحلبي ثم انتشر.

الطريقة التي انتهجتها في تحقيق هذا الكتاب

١ - ذكرت ترجمة للمؤلف من بعض كتبه كما وأنّي ألحقت بها مصنفاته ولم أستوعبها كلها، بل ذكرت المشهور منها فقط.

٢ - عزوت الأقوال التي ذكرها المؤلف في الكتاب، وقد لاقيت في ذلك صعوبة كبيرة، لأن المؤلف رحمه الله غالباً ما يذكر قول المؤلف من غير ذكر المصدر. مثلاً يقول: قال الشوكاني كذا،وقال ابن الوزير كذا، وهذا استغرق وقتاً وجهداً في تخريج هذه الأقوال.

٣ - خرَّجت الأحاديث الموجودة في المتن واكتفيت بذكر حكم الشيخ الألباني - رحمه الله -.

٤ - ترجمت للأعلام الغير معروفة والغير مشهورة واكتفيت بذكر سنة الولادة، وسنة الوفاة، والمصنفات إن كانت، ومصدر الترجمة.

٥ - علّقت على المسائل التي تحتاج إلى تعليق، ونقلت بعضاً من فتاوى العلاّمة ابن عثيمين في ذلك.

٦ - أثبت التعليقات الموجودة على هامش الكتاب، ووضعت أمامها كلمة «حاشية» حتى تتميّز عن غيرها.

٧ - وضعت فهرساً لموضوعات النّص حسب الفصول التي تناولها المؤلف.

ملاحظة: ذكر المؤلف بيتين من الشعر بالفارسية وآخرين بالهندية ولم أتمكن من ترجمتهما وأثبتهما كما هما في المتن.

❀ ❀ ❀

بسم الله الرحمن الرحيم

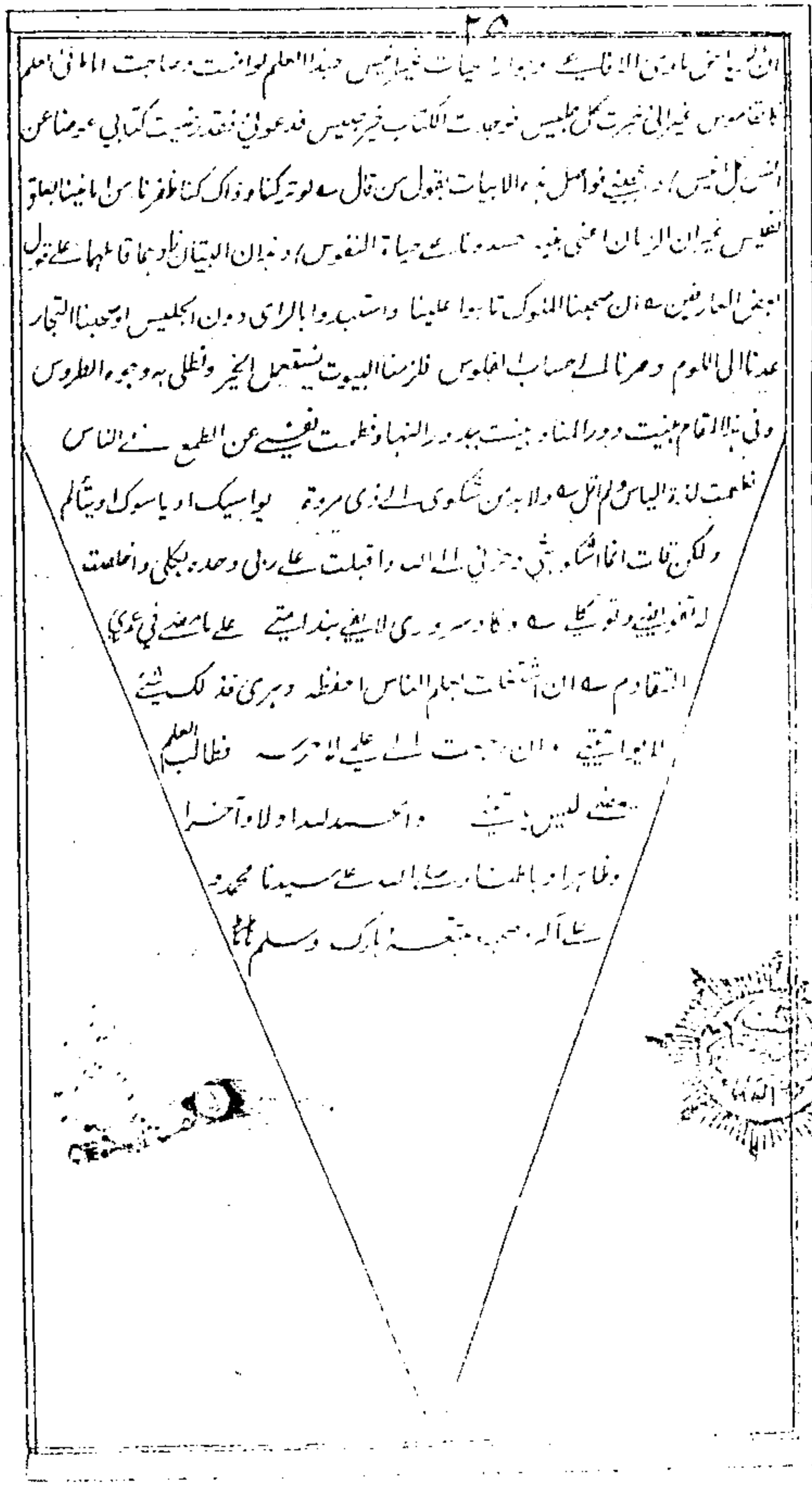
الحمد لله الذي سلك بأهل الحق مسلك السنة والكتاب اللذين هما أجل الكتب قدرا وأعظمها نفعا وأوضحها
حجة وأقومها طريقة وأولاها اعتصاما من كل باب ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
واقية من سوء الخاتمة ومس العذاب ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله المبعوث من أكرم
الشعوب أشرف الشعاب إلى أمته أمية عربية بأفضل كتاب أكمل خطاب صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
صلاة وسلاما دائمين ما جن الظلام وطاش شباب ثم اعلم جماعة السنة وعصابة أهل الحق أن أهل السنة
والحق هم من كان على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وتابعوهم من غير إحداث
وابتداع وزيادة في الدين ونقصان منه وانتزاع وكل طائفة تدعي أنها كذلك كما قيل ــ وكل يدعي
وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا ، ولكن معيار ذلك العمل لا الدعوى وعلامته عدم التقيد بغير القرآن
والحديث وخلع ربقة العقل المخالف للسمع والتقليد عنه وهذا أمر قد سلكه المتبعون ومنعه المتكلمون المتعمقون
فأنى لهم التناوش من مكان بعيد وزعموا أن الشيء في معرفة الكتاب والسنة مخرج وأن قد سدت باب معرفتهما
بسد ذي القرنين على يأجوج ومأجوج ولا يعرف هذا إلا من سبر الأقوال وعرف مؤلفات الرجال
فلا نطيل بذكرهم المقال وإنما هي نفثة مصدور ومظهر حسرة ما يوم العرض والنشور ــ ستعلم ليلى أي
دين تداينت وأي غريم للتقاضي غريمها ، وهذه ثمانية فصول وعدة أصول ثمرتها المجتنى لطيفة
المبنى قليلة الحجم كثيرة النفع مشتملة على ما جاء من السلف الصالح والخلف الأتقياء في عظم قدر الكتاب
المبين وكراهة التعمق في علم الكلام وذم التأويل وصرف النصوص عن ظواهرها ومآل علم الكلام و
بيان ما بدل من ألفاظ العلوم والفرق بين علماء الآخرة وعلماء السوء وصفة العالم الرباني وإيثار
المنقول على نتائج العقول سميتها **قصد السبيل إلى ذم الكلام والتأويل** وأرجو
من الله سبحانه وتعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وينفع بها العباد كما نفع بأخواتها من الحطة و
الجنة والانتقاد ــ إذا لم أجد لي في الأنام منطقا يرمي الفؤاد بكره التقييد ناطقت
أطراف اليراع فساقطت درا تروق فرائدا وعقودا **الفصل الأول** في تنبيه

صورة الصفحة الأولى من النسخة القديمة لقصد السبيل


١٩

الاسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالاغراض الفاسدة الى معان غير ما اراده السلف الصالح
والقرن الاول وهي خمسة الفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه اسامي محمودة
والمتصفون بها ارباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن الى معان مذمومة فصارت
القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الاسامي عليهم اللفظ الاول
الفقه فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل اذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى
والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان اشد تعمقا
فيها واكثر اشتغالا بها يقال هو الافقه وكان اسم الفقه في العصر الاول مطلقا على علم طريقة الآخرة
ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع
الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله عز وجل ليتفقهوا في الدين ولينذروا
قومهم اذا رجعوا اليهم وما يحصل به الانذار والتخويف هذا هو الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق
واللعان والسلم والاجارة فذلك لا يحصل به انذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب
وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له وقال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها واراد
معاني الايمان دون الفتاوى ولعمري ان الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد وانما يتكلم
في عادة الاستعمال به قديما وحديثا وسئل الزهري اي اهل المدينة افقه قال اتقاهم لله وسأل
فرقد السبخي الحسن عن شيء فاجابه فقال ان الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك امك فريقد هل
رأيت فقيها بعينك انما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة
ربه الورع الكاف نفسه عن اعراض المسلمين العفيف عن اموالهم الناصح لجماعتهم ولم يقل في جميع
ذلك الحافظ لفروع الفتاوى ولست اقول ان اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى ولكن كان بطريق
العموم والاستتباع فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والتوسل به الى طلب الولايات
والقضاء والجاه والمال اللفظ الثاني العلم وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى
وبآياته وبافعاله في عباده وخلقه ... قال ابن مسعود لقد مات تسعة اعشار
العلم وقد تصرفوا فيه ايضا بالتخصيص حتى شهروه في الاكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم
في المسائل الفقهية وغيرها فيقال هو العالم على الحقيقة وهو الفحل في العلم ومن لا يمارس

صورة الصفحة رقم (١٩) من النسخة القديمة لقصد السبيل وعليها بعض التعليقات على الجانب


٢٥

انّي يا اخي ما زدت الا قليلاً [illegible] حياة [illegible] حب العلم لو انصفت [illegible] الا في علم

[illegible] الى [illegible] كل مجلس [illegible] الكتاب خير جليس فدعوني فقد رضيت كتابي [illegible] عن

الناس [illegible] الابيات بقول من قال [illegible] وذاك كنا [illegible] من [illegible]

النفيس [illegible] الزمان [illegible] حياة النفوس [illegible] على قول

[illegible] العارفين [illegible] الملوك تاهوا علينا واستبدوا بالرأي دون الجليس او صحبنا التجار

عدنا الى اللوم [illegible] حساب الفلوس فلزمنا البيوت نستخرج الخير ونملي به وجوه الطروس

[illegible] ونفسي عن الطمع [illegible] الناس

[illegible] اليأس ولم ازل [illegible] لذي مروة يواسيك او يسليك او يتألم

ولكن [illegible] واقبلت على ربي وحده [illegible]

[illegible] على ما مضى في عدي

التقادم [illegible] الناس [illegible]

[illegible] فطالب العلم

[illegible] والحمد لله اولاً وآخراً

وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد و

على آله وصحبه [illegible] وسلم تم

صورة الصفحة الأخيرة من قصد السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سلك بأهل الحق مسلك السنة والكتاب الذين هما أجل الكتب قدراً، وأعظمها نفعاً، وأبلغها حجة، وأقومها طريقة، وأولاها اعتصاماً في كل باب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة واقية من سوء الخاتمة ومس العذاب، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله المبعوث من أكرم الشعوب، وأشرف الشعاب، إلى أمة أمية عربية بأفضل كتاب، وأكمل خطاب، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِهِ وسلم صلاة وسلاماً دائمين ما جن ظلام وطلع شهاب، ثم لتعلم جماعة السنة وعصابة أهل الحق أن أهل السنة والحق هم من كان على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه[1] وتابعوهم من غير إحداث وابتداع، وزيادة في الدين، ونقصان منه واختراع، وكل طائفة تدعي أنها كذلك كما قيل:

وكل يدّعي وصلاً لليلى ... وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

ولكن معيار ذلك العمل لا الدعوى، وعلامته عدم التقييد بغير القرآن والحديث، وخلع ربقة التقليد المخالفة للسمع والعقل، وهذا أمر

(١) يشير إلى قوله ﷺ: **«تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعينَ فِرقةً، كلهم في النار إلا واحدةً»** قالوا: وما هي تلك الفرقةُ؟ قال: **«ما أنا عليه اليوم وأصحابي»** رواه الطبراني في المعجم الصغير (رقم: ٧٢٤) وله طريق آخر أخرجه الترمذي (٢٦٤١) والحاكم (٢٢٨/١) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢١٢٨).

قدّسه المتمذهبون، ومنعه المتكلمون المتعمقون ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾[1] وزعموا أن مدّعي معرفة الكتاب والسنّة محجوج، وأن قد سُدَّ باب معرفتها سَدَّ ذي القرنينِ على يأجوج ومأجوج، ولا يعرف هذا إلا من سَبَرَ الأقوال وعرف مؤلفات الرجال، فلا نطيل بذكرهم المقال، وإنما هي نفثة مصدور ومظهر صدقها يوم العرض والنشور.

ستعلم ليلى أي دين تداينت وأي غريم في التقاضي غريمها

وهذه ثمانية فصول وعدة أصول، خميصة المبنى، بطينة المعنى، قليلة الحجم، كثيرة النفع، مشتملة على ما جاء من السلف الصلحاء والخلف الأتقياء، في عظم قدر الكتاب المبين، وكراهة الغلوّ في علم الكلام، وذمّ التأويل، وصرف النصوص عن ظواهرها، ومآل علم الكلام، وبيان ما بدل من ألفاظ العلوم، وأمارة علماء الآخرة وعلماء السوء، وصفة العالم الربّاني، وإيثار الخمول على نقاء الفحول، سمّيتها (قصد السبيل إلى ذمّ الكلام والتأويل) وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعلها خالصاً لوجهه الكريم، وينفعَ بها العباد كما نفع بأخواتها من الحطة[2] والجنّة[3] والانتقاد[4].

إذا لم أجد لي في الأنام مناطقاً يُرضي القلوب ويكره التنفيدا
ناطقت أطراف اليراع فساقطت درراً تروق فرائداً وعقودا

❁ ❁ ❁

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٢.

(٢) هو كتاب الحطة في ذكر الصّحاح الستّة، طبع بكانبور بالهند سنة ١٢٨٣هـ، وببيروت سنة ١٩٨٧هـ.

(٣) الجنة في الأسوة الحسنة بالسنّة: غير مطبوع.

(٤) الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح، طبع بالهند قبل أكثر من مائة سنة، والآن تقوم دار ابن حزم بطباعته بتحقيقي.

الفصل الأول

في التنبيه على عظم قدر القرآن الكريم في علوم الدين وأنه في ذلك أجلّ نفعاً وخطراً وقدراً وأثراً من جميع تصانيف المتعمقين، وتداقيق المتكلمين، وهي أنواع ذكرها السيّد الإمام الكبير محمد بن إبراهيم الوزير[(١)] رحمه الله في ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان[(٢)]:

النوع الأول: قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[(٣)] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٤)]، فما كان لعظم قدره ونفعه وبركته ونوره وهدايته وسره وخاصته التي لا يحيط بمعرفتها على التفصيل والتحقيق إلا الله عز وجل بحيث يُؤَثّر في الجبال الراسيات والصخور القاسيات، فكيف لا يؤثّر في القلب المتدبر المتعلم منه، المعَوَّل في المهمات عليه، الراجع في اقتباس نور الهدى إليه، وأيّ كتاب يوجد في العالم موصوفاً بهذا

---

(١) هو العلّامة محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الشهير بابن الوزير اليمني الصنعاني، ولد سنة (٧٧٥) وتوفي عام (٨٤٠هـ) أثنى عليه علماء كُثر منهم الشوكاني، والسخاوي، والحافظ ابن حجر، وله مؤلفات عديدة مفيدة أهمّها: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، وإيثار الحق على الخلق، والروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم.

(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص (٩).

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣١.

الوصف؟ والواصف له بذلك الربّ الجليل علّام الغيوب الذي يستحيل عليه الخطأ، والتعظيم لما لا يستحق التعظيم، والغلو القبيح في الكلام بغير الحق، وكيف يترك ما في هذا الذّكر المبين من البراهين ويعتمد على تآليف المخلوقين وأساليب الجدليين، ثم يورد إشكالات على نصوصه النّيّرة، وشكوكاً في علومه البيّنة، ويعاب من دعا إلى الاعتماد عليه، ويُضلَّل من كان رجوعُهُ في المشكلات إليه؟

النوع الثاني: قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[3]. فهذه الآيات وأمثالها الواردة بصيغة الاستفهام، المتضمن معنى الإنكار، فيها مبالغة واضحة عند علماء البلاغة في وضوح كفايته ودلالته على وجوب الإيمان وعظم النفع في تدبره، بحيث لا يماثله في هذه الأشياء غيره ولا يقاربه.

النوع الثالث: قال تعالى: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4]. وما في معناها من الآيات، والاشتغال بالنظر في علوم هذا المعجز الجليل، الذي أعجز الخلق أجمعين، بالنصوص القرآنية والضرورة العقلية، أولى من الاشتغال بعلوم الأجناس والأمثال من سائر الناس، فالعائب لمن دعا إلى هذا خارج عن العلم وأهله، لاحِقٌ بالعالم البهيمي في فاحش جهله.

النوع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[5] فانظر إلى موقع قوله فَصَّلناه على علم وما دل

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٥٠.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.

عليه من مطابقة ما اشتمل عليه القرآن من الإيجاز في موضعه والاكتفاء بالجملة في موضعه، لما تقرر في علم الله تعالى بالغيوب من مصالح المؤمنين الذين خصّهم بأنّ لهم هدى ورحمة، وأي كتاب فُصّلَ على علم مثل العلم الذي صدر عنه تفصيله، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾[1]. فإن معنى القيّم والمنفي عنه العوج هو الذي بلغ غاية القصوى في الإحكام والإتقان، وانتفاء التعارض والخطأ والتناقض وإيهام الضلال، وإنما جمع بين نفي العوج وإثبات القيّومية له، وأحدهما يغني عن الآخر تأكيداً لذلك ومبالغة فيه، فكيف يقوم مقامَه سواه ويساوى كتاب بكتاب الله؟

النوع الخامس: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[2] وما في معناها، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[3]، وإنما كانت في معنى الأولى لأن القرآن أوْكد ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلّم، وأبعده من كل ريب، فمن استراب في شيء منه فهو مما سواه أعظم ريباً، ومن ولع بالنظر في دقائق الكلام المختلف فيها بيْن أهله وأعرض عن التدبر في الكتاب، وفي الفرق بين نصوصه، وظواهره، وخصوصه، وعموماته، ربما تمكن في نفسه القطع بصحة أمر من تلك الأمور المختلف فيها من غير أن يحكم دليل يتقاطع به ويستوثق من صحته، ثم يسمع نصوص القرآن يخالف ما هو عليه فيعتقد فيها من تحمل وجوه المجاز[4] ما لا يصح مثله

(١) سورة الكهف، الآية: ١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٤) سماه ابن القيم: طاغوت، لأنّه عمدة أهل البدع في نفي الصفات، والحقيقة أنه لا مجاز في القرآن كما قال العلّامة الشنقيطي رحمه الله في رسالته «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز»:
«أجمع القائلون بالمجاز أن كل مجاز يجوز نفيه ويكون نفيه صادقاً في نص الأمر، فليزم

في العربية ولا موجب له لو حقق النظر في الفطرة السليمة العقلية، وذلك مثل من يقطع على استحالة تسبيح الطّير وغيرها من الحيوان مع قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2]. وما في معناها من الآيات الكثيرة، مع ما جاء في الحديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم المبيّن لكتاب الله تعالى من ذلك، ومن مواضع ذلك كتاب الشفا للقاضي عياض فإنه أفرد ذلك في فصل تركته اختصاراً، والقصد بذكر هذا تمثيل ما حذّرت منه من التبرّم من الإيمان بما في كتاب الله تعالى مما يتأوله بعض المتكلمين ويعتقدون القطع ببطلان صحته، ويتمحلون له من التجوز ما يتنزه أحدهم عن مثله في كلامه وبيانه.

النوع السادس: أنه قد اختص من نفائس الصفات بما لم يشاركه فيه غيره من كونه كلام الله تعالى، وكونه معجزاً ومن أنه ﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾[3]، و﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾[4]، و﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾[5]، وأنه نور وأنه ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[6] ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾[7]، فجعل أهل العلم الحق الذين هم العلماء حق العلماء هم المختصون بمعرفة ذلك، وكذلك في الحديث عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وآله

= على القول بأنّ في القرآن مجازاً أن في القرآن ما يجوز نفيه، ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن» من رسالة الشنقيطي ـ رحمه الله ـ.

(١) سورة النور، الآية: ٤١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) سورة البروج، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٦) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٧) سورة سبأ، الآية: ٦.

وأصحابه وسلم «القرآن هو الشفاء» رواه السيد أبو طالب في أماليه وابن ماجه[1] نحوه في كتاب الطب من سننه، فما سبب نقصانه وقصوره، فإن أدعى جاهل أن السببَ أنه لم يُذكر فيه، كذبته نصوص القرآن ونصوصُ علماء الإسلام، وإن ادعى أن القصور في عبارته كذبته الضرورة والإجماع.

النوع السابع: أن العقلاء ما زالوا يستدلون على حسن الكتب وعظم نفعها بمقدار صاحبها، ولا شك أن تواليف العلماء قد تفاضلت على قدر علومهم، والقرآن كلام علّام الغيوب، وقد أنزله هدىً وشفاءً ونوراً وبياناً، ولا شكّ أنّ في العلوم مصالح ومفاسد، لقوله تعالى في تعليم السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[2] وقال في السّاعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[3] وقال: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[5] إلى قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[6] وفي قوله تعالى للحواريين: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[7]، إشارة إلى أن زيادة العلم في بعض المواضيع قد تكون سبباً في زيادة العذاب فيكون مصلحة الخلق في طي كثير من العلوم[8]، وإليه الإشارة بقوله عز وجل:

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الطب، باب الاستشفاء بالقرآن، رقم **٣٤٩٢**.

(٢) سورة البقرة، الآية: **١٠٢**.

(٣) سورة طه، الآية: **١٥**.

(٤) سورة الأنفال، الآية: **٤٣**.

(٥) سورة المائدة: الآية: **١٠١**.

(٦) سورة المائدة، الآية: **١٠٢**.

(٧) سورة المائدة، الآية: **١١٥**.

(٨) كثيراً من الأشياء لم يطلعنا الله سبحانه عليها رحمة بنا، ولو اطلعنا عليها لحصل مشقة وكلفة في فعلها أو تركها، ومن هذا الباب قول الرسول ﷺ: «**أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم على المسلمين فحرّم عليهم من أجل مسألته**» مسلم. والعلماء يمثلون لذلك بسؤال أصحاب موسى لموسى عليه السّلام عن البقرة وصفتها ولونها وغير ذلك ـ وهي أشياء سَكت الله عنها ـ ولكن لما سألوا عِلْمَهَا زادهم ذلك مشقة وعسراً في =

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[1]، فإذا تقرر ذلك فالرجوع إلى كتاب من يعلم مصالحنا ومفاسدنا ما لا نعلمه أولى بنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وهذا كلّه بعد علمنا بأنه كلام الله عز وجل بدليل المعجزات وطريقة السلف.

النوع الثامن: ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلّم وأهل بيته وأصحابه[3] من الحثّ على الرجوع إلى كتاب الله تعالى وتفضيله على غيره ممّا فيه خير وهدى، وتفصيل ذلك يطول ويمل فلنقتصر في ذلك على حديث مشهور يذكّر بأمثاله وذلك ما رواه الترمذي[4] من

= الحصول عليها. ولذلك كره السّلف كثرة السّؤال عن المسائل التي لم تقع إن كان ذلك على وجه التعنت لا التفقه، وكانوا يقولون: دعها حتى تقع، كما روي ذلك عن الإمام مالك. بقيت مسألة ثانية هي أنّه هناك مسائل وعلوم لا ينبغي على المرء أن يتعلّمها أو يعلمها في بعض الأحيان والأحوال، وبعض العلوم مثل السحر لا يجوز تعلّمها على الإطلاق وذلك للمفاسد والأضرار التي تنتج عن ذلك، أمّا المسائل والعلوم التي ينبغي للمرء أن يتعلّمها ولا يعلّمها في وقت دون وقت، وحال دون حال، فترجع إلى مستوى المتعلّم ومدى أهليته لتعلم هذه المسائل، ومدى فقه المعلم لهذه الأمور، ولذلك قال البخاري رحمه الله في باب: من خصّ بالعلم قوماً دون آخرين كراهية أن لا يفهموا، وقال علي: حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات (٤/١٨٩): ومن هنا يعلم أنّه ليس كلّ ما يعلم ممّا هو حق يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، وممّا يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص ومن ذلك تعيين هذه الفرق، فإنّه وإن كان حقّاً فقد يثير فتنة كما تبيّن تقريره فيكون من تلك الجهة ممنوعاً به» اهـ. وهذه المسائل متفرعة عن قاعدة «سدّ الذرائع».

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

(٣) وجد في الحاشية: وعن ابن عباس: «من تعلّم كتاب الله ثم اتبع ما فيه هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه يوم القيامة سوء الحساب» وفي رواية قال: «من اقتدى بكتاب الله لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة» ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ رواه رزين.

(٤) سنن الترمذي: (٢٩٠٦) فيه أبو المختار الطائي: مجهول، وفيه ابن أبي الأعور بن =

حديث الحارث بن عبدالله الهمداني صاحب عليّ عليه السلام قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي عليه السلام فأخبرته فقال: أَوَقد فعلوها، قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم يقول: ألا إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا يبلغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسِنَةُ، ولا يشبَعُ منه العلماء، ولا يخلو على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾[1] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من ثلاثة طرق من حديث عمر بن الخطاب ولم يزل العلماء يتداولونه فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول.

النوع التاسع: إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف على أن القرآن يفيد ما ادعيتُ من معرفة أدلة التوحيد من غير ظن ولا تقليد، وكما أن المتكلم ينظر في كتب شيوخه ليتعلم منها الأدلة من غير تقليد، وغيره كذلك القرآن ينظر ويتعلم منه من غير تقليد، بل القرآن هو الذي تعلّم المتكلمون منه النظر، لكنهم غلوا في النظر ولم يقتصروا على القدر النافع المذكور في كتاب الله تعالى، وذلك يتضح بأن كلام علماء الفرق المختلفة في المصَنّفات الشهيرة، وعدم إنكار شيء من ذلك على أحد منهم في

= الحارث، قال الذهبي: لا يُدرَى من هو، وقد ضعفه الألباني رحمه الله رحمة واسعة في ضعيف سنن الترمذي برقم (٥٥٤).

(١) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

الأزمنة الطويلة والقرون العديدة مع اختلافهم واختلاف المقررين لهم أغراضاً وبلداناً، وأنساباً وأزماناً، لم يجمعهم بلد ولا مذهب، ولا زمن ولا نسب، ولا غرض ولا سبب.

فالحاصل أن أكثر القرآن مشتمل على ذكر الأدلة وشرحِها، واتفقَ فيها استنباطُ الأدلةِ التي توافق العقولَ موافقةً ما تضمنه أحكامُ العقل على وجه يبهر ذوي العقول ويحيرهم، فإن الله سبحانه ينبه على المعاني التي يستخرجها المتكلمون بمعاناة وجهد بألفاظ سهلة قليلة تحتوي على معان كثيرة، قال القاضي عياض في الشفا[1]: «منها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلّم خاصة قبل نبوته بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمة، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرف الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بيّنة، سهلةِ الألفاظ، موجزة المقاصد التي رام المتحذلقون بعد أن نصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها» انتهى. وقال الفخر الرازي[2]: «أقر الأشعري بل الكل بأنه لا يمكن أن يزاد في تقرير الدلائل على ما ورد في القرآن» وقال الغزالي[3]: «أولى ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق النظر والاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله بيان». ثم ساق الآيات القرآنية، وقرر ذلك السيد الإمام عز الدين محمد بن إبراهيم رحمه الله في كتابه «ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان» وبيان ذلك بإجماع الأعيان بأوضح البيان فليرجع إليه الطالب بصدق الإذعان وبالله التوفيق[4].

---

(١) الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢٣٤/١)، وانظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير ص (٢٠).

(٢) في الحاشية: «له في كتاب الأربعين في الكلام على النبوات في ذكر المعجزات العقلية». اهـ، وانظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص (٢٠).

(٣) في ترجيح أساليب القرآن: وقال الغزالي وهو من أئمة الطائفة الشافعية في الفقه والأصول في الأصل الأول من الركن الأول من الرسالة القدسية في معرفة وجود الرّب تعالى: وأولى...

(٤) انظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص (٢٠) وما بعدها.

الفصل الثاني

في نصوص أهل العلم الأعلام في كراهية الغلو في علم الكلام

ذكر في الأساليب[1] أنها وردت نصوص تقتضي العلم أو الظن بأن الخوض في علم الكلام على وجه التقصي في الشبه، والإصغاء إليها، والتفتيش عن مباحث الفلاسفة والمبتدعة المشكلة في كثير من الجليات مَضَرّة عظيمة، ممرضة لكثير من القلوب الصحيحة، ودفع المضرة المظنونة واجب عقلًا، وقد شهدت بذلك التجارب مع النصوص، وضل بسببه[2] اثنان وسبعون فرقة من ثلاث وسبعين، وهذه الإشارة بالنصوص إشارة إلى مجموع أشياء كثيرة منها النواهي عن البدع، ومنها النواهي عن المراء مطلقاً، وهو ما يظن أنه لا يفيد بخلاف المجادلة التي هي أحسن، ومنها النواهي عن المراء في القرآن خاصّة، ومنها النواهي عن المراء في القدر خاصة، وفيها النهي عن التفكر في الله، ومنها الأوامر عند الوسوسة بما ينافي طرائق أهل الكلام، وفي ذلك خمسة عشر حديثاً في الكتب

---

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير ص(٤٤).

(٢) وجد في الحاشية: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم «**أنّ بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة كلّها في النّار إلّا ملة واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**» رواه الترمذي.

الستة ومجمع الزوائد، أشرت إلى بيانها في العواصم، ومنها أحاديث الإسلام والإيمان المتواترة التي تقتضي قواعد الكلام منافاتها إلا مع التأويلات المتعسفة، ويشهد لذلك من كتاب الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾[1][2] انتهى.

وقال في موضع آخر[3]: علماء المتكلمين والجدليين والمنطقيين لا يستطيعون أن يدّعوا على السلف أنهم خاضوا في علمهم، ولا مهّدوا لهم قاعدة، ولو كان شيء من ذلك لنقلوا نصوصهم في ذلك. انتهى.

[[4]وكان أبو حنيفة رحمه الله يكره الجدال على سبيل الحق فضلًا عن الباطل، وعن أبي يوسف[5] رحمه الله: لا يجوز الصلاة خلف المتكلم وإن تكلم بحق لأنه مبتدع][6]. وقال أيضاً: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٦.

(٢) في الحاشية: وهذا مطابق لما ورد في الحديث بالاستعاذة بالله تعالى عند السؤال عن الشبهة وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: ١١٨] وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ ولم يقل بعد المتكلمين. وقد حكى الله مجادلة الأنبياء في كتابه لأنواع الجاحدين فلم يكن فيها شيء يتوقف على معرفة دقائق الكلام والمتكلمين. وقد بُسط هذا المعنى في العواصم فمن لم تكفه هنا الإشارة فليطالع هنالك» هكذا في ترجيح أساليب القرآن.

(٣) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص(٧٩).

(٤) ملاحظة: ما بين المعكوفتين هو مختصر من كلام علي القاري في شرح الفقه الأكبر ص (٦، ٧).

(٥) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش الأنصاري المكنى بأبي يوسف ولد سنة ١١٣ هجرية بالكوفة وطلب العلم سنة (١٣٣هـ) ويعدّ من أشهر تلاميذ أبي حنيفة، كان زاهداً، ورعاً، عالماً، منصفاً، توفي سنة ١٨٢هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام؛ وفيات (١٨٢هـ)، شذرات الذهب ٣٨٩/١.

(٦) انظر شرح الفقه الأكبر ص(٦).

بالكلام هو العلم»[1]، وعنه «من طلب العلم بالكلام تزندق»[2].

وقال الشافعي رحمه الله: «إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له»[3].

وقال أيضاً: «لو علم الناس ما في هذا الكلام من الأهواء لفروا منهم فرارهم من الأسد»[4].

وقال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة»[5].

وعنه «لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام»[6].

وقال: «لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله»[7].

وقال مالك ـ رحمه الله ـ: «لا يجوز شهادة أهل الكلام على أي مذهب كانوا»[8].

---

(١) ابن بطة العكبري في الإبانة (٥٣٦/٢) والسيوطي في صون المنطق والكلام ص(٦٠)، وشرح الفقه الأكبر ص(٦).

(٢) صون المنطق والكلام للسيوطي ص(٦٠) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص(٢٠٩)، وشرح الفقه الأكبر ص (٦).

(٣) صون المنطق والكلام للسيوطي ص(٦٥)، وشرح الفقه الأكبر ص(٩).

(٤) صون المنطق والكلام للسيوطي (٦٦)، وشرح الفقه الأكبر ص(٩).

(٥) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١١٦/٩) وابن عبدالبر في الانتقاء ص(٨٠) والسيوطي في صون المنطق ص(٦٤)، وشرح الفقه الأكبر ص(٦).

(٦) رواه بلفظ مقارب أبو نعيم في الحلية (١١١/٩) وابن عبدالبر في الانتقاء (٧٨) وابن أبي حاتم في مناقب الشافعي ص(١٨٢) وابن بطة في الإبانة (٥٣٢/٢)، وشرح الفقه الأكبر ص(٦).

(٧) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص(٢١٠)، شرح الفقه الأكبر ص(٩).

(٨) شرح الفقه الأكبر ص(٩).

وقال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: «علماء الكلام زنادقة»، وقال: «لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل»[١]. ولقد بالغ فيه حتى حجر الحارث بن أسد المحاسبي مع ورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة[٢].

قالوا: لو أوصى لعلماء بلده، لا يدخل المتكلمون. و«لو أوصى أن يوقف من كتبه فأفتى السلف بأن يباع ما فيها من كتاب الكلام»[٣].

قال علي القاري[٤]: «وهو كلام مستحسن إذ كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول» انتهى.

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص(٢٤)، وشرح الفقه الأكبر ص(٩).

(٢) أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي من كبار الصوفية له كتب كثيرة في الزهد والرد على الرافضة، وكان والده قدرياً فلمّا مات خلّف مالاً كثيراً فما أخذ منه الحارث حبّة وقال: أهل ملّتين لا يتوارثان.
قال الذهبي في تاريخ الإسلام: «وقد كان الحارث كبير الشأن قليل المثل، لكنّه دخل في شيء يسير من الكلام فنقموه عليه» اهـ تاريخ الإسلام وفيات ٢٤٣هـ.
ولأجل هذا السبب حرّم العلماء النظر في كتبه.
قال سعيد بن عمرو البردعي: شهدت أبا زرعة، وسئل عن الحارث المحاسبيّ وكتبه، فقال: إيّاك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب.
قيل له: هذه الكتب عبرة.
قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أنّ مالكاً والثوري والأوزاعي صنّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس؟ ما أسرع الناس إلى البدع.
وقال أبو القاسم النصرباذيّ: بلغني أنّ الحارث تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى في دار ببغداد ومات فيها، ولم يصلِّ عليه إلّا أربعة نفر. ومات سنة ٢٤٣هـ.
وقيل إنه تاب من جميع ما أنكر عليه. فرحمة الله عليه.
تاريخ الإسلام وفيات ٢٤٣هـ، شذرات الذهب ١٠٣/١، تاريخ بغداد ٢١١/٨، ٢١٦.

(٣) شرح الفقه الأكبر ص(٩)، عن الربيع قال: سمعت الشافعي يقول في كتاب الوصايا: لو أنّ رجلًا أوصى بكتبه من العلم لآخر، وكان فيها كتب الكلام لم يدخل في الوصية لأنه ليس من العلم.

(٤) شرح الفقه الأكبر ص(٧).

وقد أفتى الجلال[1] السيوطي بتحريم علوم الفلاسفة كالمنطق وغيرها بإجماع السلف وأكثر المعتبرين من الخلف منهم ابن الصلاح والنووي وخلق لا يحصون، وجمع[2] كتاباً نقل فيه نصوص الأئمة عليه، وللحافظ سراج الدين القزويني من الحنفية كتاب في تحريمه، وجزم ابن رشيد من المالكية: «بأن المشتغل به لا تقبل روايته».

وذهب[3] إلى تحريمه، مالك ومحمد وأحمد وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف، وساق الغزالي ألفاظ هؤلاء وأنهم قالوا: ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح في ترتيب الألفاظ من سائر الخلائق إلا لما يتولد منه الشر، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**هلك المتنطعون**»[4]، أي المتعمقون في البحث، ولو كان ذلك من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله الأمين صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ويعلم طريقه ويثني على أربابه، ومن مضرة هذا العلم، إثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم إلى غير ذلك[5].

قال علي القاري[6]: «ومنها الخوض في علم الكلام وترك العلم بأحكام الإسلام المستفاد من الكتاب والسنة وإجماع الأمة حتى يجتهد

---

(١) الكلام لعلي القاري [شرح الفقه الأكبر ص(٧)] وقد نقلهُ من إتمام الدراية للسيوطي، انظر كتاب نقد الطالب لزغل المناصب لابن طولون ص(١٣٢).

(٢) في شرح الفقه الأكبر: وقد جمعت ـ علي القاري ـ كتاباً نقلت فيه نصوص الأئمة في الحط عليه. وذكر الحافظ سراج الدين القزويني من الحنفية في كتاب ألفه في تحريمه أنّ الغزالي رجع إلى تحريمه بعد ثنائه عليه في أوّل المنتقى وجزم السلفي من أصحابنا وابن رشد بأن المشتغل به لا تقبل روايته.

(٣) انظر شرح الفقه الأكبر ص(٧).

(٤) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في [كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون ٤/١٢٠٥٥].

(٥) انتهى كلام علي القاري باختصار، شرح الفقه الأكبر ص(٨).

(٦) شرح الفقه الأكبر ص(١٠).

بعضهم ثلاثين سنة ليصير كلامياً، ثم يدرس فيه ويتكلم بما يوافقه ويدفع ما ينافيه، ولو سئل عن معنى آية أو حديث أو مسألة مهمة من الفروع المتعلقة بالطهارة والصلاة والصوم كان جاهلًا عنها ساكتاً فيها، مع أن جميع العقائد الثابتة موجودة في الكتاب قطعياً وفي السنة ظنياً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾[1]؛ أي القرآن كفاية لهم في الموعظة في أمر معاشهم ومعادهم. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2]، أي: القرآن يدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، مع علمهم بأنك أميّ لا تكتب ولا تقرأ». انتهى.

قال القرطبي[3] ـ رحمه الله ـ في شرح صحيح مسلم في باب كراهة الخصومة في الدين في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[4] وتأويل كلامه جلّ جلاله: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[5]: هذا الخصم المبغوض عند الله تعالى، هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق ورده بالأوجه الفاسدة، والشبهة المموهة، وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطريقة[6] التي أرشد إليها كتاب الله وسنّة نبيه وسلف أمته إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية مدار أكثرها على مباحث سوفسطائية، أو مناقشات لفظية ترد تشبيهاً على الآخذ فيها شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالًا عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم يضاد الشبهة لا يقوى على حلّها! وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها! ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البُلّه والأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر والأكوان والأحوال،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٦/٦٩٠، ٦٩٢).

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

(٦) في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: طرق.

ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلقات صفات الله تعالى وتمد يدها واتحادها في أنفسها وإنما[1] هي الذات أو غيرها، وأن الكلام هو[2] متحد أو منقسم، وإذا كان منقسماً فهل ينقسم بالأنواع أو بالأوصاف؟ وكيف تعلّق في الأزل بالمأمور؟ فإذا انعدم المأمور فهل بقي ذلك التعلق [أم لا][3]؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلًا، هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لم تُعْلَم كيفيتُه، فإن العقول لها حدٌّ تقف عنده وهو العجز عن التكييف ولا تتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصّفات، ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[4] ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار[5]، فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز، وغاية إدراك علم العلماء وإدراك عقول العقلاء أن يقطعوا بوجود فاعل لهذه المصنوعات، منزه عن صفاتها، مقدّس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللّائق به، ثم مهما أخبر الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه وتركنا الخوض فيه.

---

(١) في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: إنها.

(٢) في المفهم لما أشكل في تلخيص كتاب مسلم: هل هو.

(٣) محذوفة من المرجع السابق.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) في الحاشية: عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: **«ما ضلّ قومٌ بعد هُدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»** ثم قرر رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ رواه أحمد **(٢١١٤٣)** والترمذي **(٣٢٤٨)** و **(٣٢٥٣)**.

هذه طريقة السّلف وما سواها [طرق الغواية والضلال][(١)]، ويكفي في الردع عن الخوض في طريق المتكلمين ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين، وقد أفضى هذا الكلام بأهله إلى الشكوك وبكثير منهم إلى الإلحاد[(٢)]، وأصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع وطلبوا الحقائق وليس في قوة العقل إدراك ما عند الله من الحكم، التي انفرد بها ولو لم يكن في الجدال إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم قد أخبر أنه علامةُ الضلال كما قال فيما أخرجه الترمذي[(٣)]: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، لكفى.

قال الشيخ[(٤)]: «ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا ملتان من مبادئه لكان حقيقياً بالذم وجديراً بالترك.

أحدهما قول طائفة: «إن أول الواجبات الشّك في الله تعالى».

والثانية قول جماعة منهم: «إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها فلا يصلح إيمانه وهو كافر»، فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين وأئمة المسلمين، وأول من يبدر[(٥)] بتكفيره آباءه[(٦)] وأسلافه وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا فقال: لا تشنيع علي بكثرة أهل النّاس أو كما قال.

ثم إن من لم يقل بهاتين المسلمتين من المتكلمين، ردوا على من قال بهما بطريق النظر والاستدلال بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان،

---

(١) في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: وما سواها مهاوٍ وتلف وما بعدها اختصره الناقل من كلام القرطبي.

(٢) من الذين اضطربوا آخر حياتهم ودخلهم الشكّ: الشهرستاني، والغزالي، والجويني وغيرهم، وكلهم أوصوا بعدم الاشتغال بعلم الكلام. انظر ص(٤٥، ٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٤٨) و (٣٢٥٣) وابن ماجة برقم (٣٧٨٢) والحاكم في المستدرك (٤٨٦/٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٥٩٣).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦٩٣، ٦٩٤).

(٥) في المرجع السابق: يبدأ.

(٦) في المرجع السابق: أباه.

وهذا خطأ فاحش، فالكلّ مخطئون، الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين. والثانية، بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شك في تكفير من قال: إنّ الشك في الله تعالى واجب، أو أن معظم الصحابة والتابعين والمسلمين كفار، فهو كافر شرعاً، أو مختل العقل وضعاً، أو كل واحدة منها معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات ولا العقليات، عصمنا الله تعالى من بدع المبتدعين، وسلك بنا طريق السلف الصالحين»[1] انتهى.

قال محمد بن علي الشّوكاني ـ رحمهما الله ـ[2]: «دع عنك ما حدث من تلك التمذهبات في الصفات، وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها، وجعلوها أصلًا يرد عليه كتاب الله وسنّة رسوله، فإن وافقاها فقد وافق الأصول المقررة في زعمهم، وإن خالفاها خالف الأصول، ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لما يبالوا به، ولا يرفعوا إليه رؤوسهم، ولا عدّوه شيئاً، ومن كان منكراً لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام، فإنه سيقف على الحقيقة، ويسلّم هذه الجملة ولا يتردد فيها.

ومن العجب العجيب والنبأ الغريب أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولًا لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل والفِرْية على الفطرة، وكلّ فرد من أفرادها قد نازعت فيه عقولهم، وتخالفت عنده إدراكاتهم، فهذا يقول: «حكم العقل في هذا كذا وكذا»، وهذا يقول: «حكم العقل في هذا كذا»، ثم يأتي من بعدهم من يجعل ذلك الذي تعقله من يقلّده ويقتدي به أصلًا يرجع إليه، ومعياراً لكلام الله تعالى وكلام رسوله [ﷺ] يقبل منهما ما وافقه، ويرد ما خالفه،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٦/٦٩٠، ٦٩٤).

(٢) التحف في مذاهب السّلف للشوكاني ص(٢٠، ٢١).

فيا لله وللمسلمين، ويا لعلماء الدين من هذه الفواقر الموحشة التي لم يُصب الإسلام وأهله بمثلها.

وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفضح، أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التي تعقلوها على اختلافهم فيها، وتناقضهم في معقولاتها، أصولًا ترد إليها أدلة الكتاب والسنة، جعلوها أيضاً معياراً لصفات الرب سبحانه، فما تعلقه[1] هذا من صفات الله تعالى قال به جزماً، وما تعقله خصمه منها قطع به، فأثبتوا لله الشيء ونقيضه، استدلالًا بما حكمت به في صفات الله عقولهم الفاسدة، وتناقضت في شأنه، ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه، جعلوه مؤيداً له ومقوياً، وقالوا: ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل، ومتشابهاً، وغير معقول المعنى، ولا ظاهر الدلالة، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم، فافترى على عقله، بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه، وجعل ذلك أصلًا ترد إليه أدلّة الكتاب والسنة، وجعل المتشابه عند أولئك محكماً عنده، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً له عنده، فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله تعالى ما لا يعلمه، وكفاك هذا وليس بعده شيء، وعنده يتعثر القلم حياءً من الله عز وجل» انتهى.

وأطال صاحب ترجيح الأساليب[2]، في نقل كلام أئمة العترة في القول بالاكتفاء بالجمل، وطريق السلف والرسل تركناها اختصاراً.

يا طالب الحق إن الحق في الجمل — وفي الوقوف عن الإفراط والزلل
هي النجاة فلا تطلب لها بدلاً — بذا أتاك حديث السادة الأول[3]

وللسيد المحقق حميدان بن يحيى القاسمي رسائل كثيرة في الحث

(١) كذا، ولعله تعقله. والله أعلم.
(٢) انظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص(٧٨، ٨٠).
(٣) البيتان في ترجيح أساليب القرآن ص (٣٠)، وهما للعلّامة يحيى بن منصور بن العفيف بن مضل.

على ترك التعمق في علم الكلام والبدع في الإسلام، على ما لا مزيد عليه[1].

قال صاحب الأساليب[2]: «ولذلك تجد أكثر الضلال في أنفسهم المضلين لغيرهم من أهل النظر، وأكثر أهل السّلامة بإقرار أهل النظر من ليسوا بأهل النظر».

قال أبو القاسم البلخي في مقالاته[3] في ذكر العامّة: «هنيئاً لهم السلامة».

ثم قال[4]: «إن النظر عند أهل المعارف أو بعضهم شرط اعتباري، ووقوع العلم واليقين بعده كوقوع الرقة والبكاء والخشوع ونحو ذلك، مما هو فعل الله تعالى، ونفعه معلوم، وإن لم يكن يقع على ترتيب أهل المنطق، ومستند العلم التجربة الضرورية فإنه يقع للصالحين، ممن لا يعرف ترتيب المقدمات بذلك النظر من اليقين والخشوع ما لم يقع للمتكلمين، فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف كلهم في النظر، وخالفهم

---

(١) ومن شعره رحمه الله ما قاله في أرجوزته التي سمّاها المتوكّل على الله المطهر ابن يحيى: المزلْزِلَة لأعضاء المعتزلة:

وما الذي ألجأهم إلى الخطر ... والخوض في علم الغيوب بالنّظر
وما يقال فيه للمخطي كفر ... وفي النبيّ أسوة ومعتبر
وقدوة محمودة لمن شكر ... ولم يخالف في الوهوم والفكر
فإنّه للفكر في الله خطر ... وفي عجيب الصنع بالفكر أمر
فمن يكون بعده من البشر ... أدرى بما يأتي به وما يذر
ليس الإله الواحد القدوس ... كما يظنّه الذي يقيس
إذ كل فكر دونه محبوس ... وكلّما تخاله النفوس
فمدرك مكيف محسوس ... فاحذر شيوخاً علمها تلبيس... إلخ

انظر ترجيح أساليب القرآن ص(٣١، ٣٢).

(٢) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير ص(٣٩).

(٣) المرجع السابق ص(٣٩).

(٤) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص(٤٣).

بعض المتكلمين وأنواع المبتدعة، فتكلموا وتعمقوا، وعبروا عن المعاني الجلية بالعبارات الخفية، ورجعوا بعد السّفر البعيد إلى الشك والحيرة، والتعادي، والتكاذب». انتهى وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث
في ذم التأويل وصرف النصوص عن ظواهرها

قال الواحد المتكلم الحافظ ابن القيم - رحمه الله - في إعلام الموقعين[١]: «قد اتفق الأئمة الأربعة على ذم الكلام وأهله، والإمام[٢] الشافعي ومذه فيهم معروف عند جميع أصحابه[٣]»، وقال في أول خطبة رسالته: «الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه الواصفون

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٤/١٩٠، ١٩٥).

(٢) في الإعلام: وكلام الإمام الشافعي.

(٣) أسقط المؤلف فقرتين من كلام ابن القيم وها أنا أنقلهما إتماماً للفائدة:
قال رحمه الله: «وكلام الإمام الشافعي ومذهبه فيهم معروف عند جميع أصحابه، وهو أنهم يضربون ويطاف بهم في قبائلهم وعشائرهم: وهذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام. قال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت أظنه، وقال: لأن يبتلى العبد بكل شيء نهي عنه غير الكفر أيسر من أن يبتلى بالكلام، وقال لحفص الفرد: أنا أخالفك في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله، أنا أقول: لا إله إلا الله الذي يُرى في الآخرة والذي كلّم موسى تكليماً، وأنت تقول: لا إله إلا الله الذي لا يُرى في الآخرة ولا يتكلم.
وقال البيهقي: ذكر الشافعي إبراهيم بن إسماعيل بن علية فقال: أنا مخالف له في كلّ شيء، وفي قوله لا إله إلا الله، لست أقول كما يقول، أنا أقول: لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء حجاب، وذاك يقول: لا إله إلا الله الذي خلق كلاماً أسمعه موسى من وراء حجاب.

من خَلْقه»، وهذا تصريح بأنّه لا يوصف إلا بما وصف به ذاته[1] تعالى[2]، ويتنزه عما يصفه به المتكلمون وغيرهم، مما لم يصف به نفسه.

وقال أبو نصر أحمد بن محمد بن حامد الشحري[3]: سمعت أبي يقول: «قلت لأبي العباس بن شريح[4]: ما التوحيد؟ فقال: توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين أشهد أن لا إله إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده[5] ورسوله، وتوحيد أهل الباطل الخوض في الأعراض والأجسام، وإنما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم بإنكار ذلك».

وقال بعض أهل العلم: «كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة، والمجازات المستكرهة، التي هي بالألغاز والأحاجي أولى منها بالبيان والهداية؟ وهل يأمن على نفسه أن يكن[6] ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[7].

قال الحسن: «هي والله لكل واصف كذباً إلى يوم القيامة»، وهل يأمن أن يتناوله قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[8].

قال ابن عيينة: «هي لكل مفسر من هذه الأمة إلى يوم القيامة».

وقد نزه الله سبحانه نفسه عن كل ما يصف[9] به خلقه إلا المرسلين فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾[10]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ

---

(١) في الإعلام: نفسه.
(٢) في الإعلام: نفسه وأنه تعالى يتنزّه....
(٣) في الإعلام: أبو النصر أحمد بن محمد بن حامد السجزي.
(٤) في الإعلام: ابن سريج.
(٥) محذوفة من الإعلام.
(٦) في الإعلام: أن يكون.
(٧) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.
(٩) في الإعلام: يصفه.
(١٠) سورة الصافات، الآيتان: ١٨٠، ١٨١.

﴿اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[1].

ويكفي المتأولين كلامَ اللّهِ ورسولِهِ بالتأويلات التي لم يُرِدها، ولم يدل عليها كلامه[2] أنهم قالوا برأيهم على الله، وقدّموا آراءهم على نصوص الوحي، وجعلوا آراءهم عياراً على كلام الله ورسوله، ولو علموا أيَّ باب شرٍّ فتحوا على الأمّة بالتأويلات الفاسدة، وأي بناء للإسلام هدموا بها، وأي معاقل وحصون استباحوها وكان[3] أحدهم لأن[4] يَخِرَّ من السماء إلى الأرض أحب إليه أن[5] يتعاطى شيئاً من ذلك، فكلّ صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذراً له فيما تأوله هو، وقال: «ما الذي حرمه[6] عليَّ التأويلَ وأباحه لكم؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوصَ المعاد، وكان تأويلُهم من جنس تأويل منكري الصفات، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين، وقالوا: «كيف نُعاقَب على تأويلنا وتؤجرون أنتم على تأويلكم»؟ قالوا: «ونصوص الوحي بالصّفات أظهر وأكثر من نصوصه بالمعاد، ودلالة النصوص عليها أبين، فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها ولا يسوغ تأويل نصوص المعاد؟ وكذلك فعلت الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة[7]، وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة، وكذلك القدرية في نصوص القدر، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم، وكذلك القرامطة والباطنية طردت الباب، وحملت[8] الوادي على القرى، وتأوّلت الدين كلّه.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) في الإعلام: كلام الله.

(٣) في الإعلام: «لكان» وذكر محقق الإعلام أنه في إحدى النسخ: «وكان أحدهم».

(٤) في الإعلام: أن.

(٥) في الإعلام: من أن يتعاطى.

(٦) في الإعلام: حرّم.

(٧) في الإعلام: رضي الله عنهم.

(٨) في الإعلام: وطمث.

فأصل خراب الدنيا والدين إنما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه، ولا دلّ عليه أنه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟!!

وليس هذا مختصاً بدين الإسلام فقط، بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسّداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا ربّ العباد.

وقد تواترت البشارات بصحة نبوّة محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم في الكتب المتقدمة، ولكن سلّطوا عليها التأويلات فأفسدوها كما أخبر سبحانه عنهم بالتحريف[1] والتبديل والكتمان، والتحريف[2]: تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم[3]، والتبديل: تبديل لفظه بلفظ آخر، والكتمان: جحده، وهذه الأدوات[4] الثلاثة منها غيرت الأديان والملل، وإذا تأملت دين المسيح وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى فساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد مثله في شيء من الأديان، ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل، وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرّقوا إلى فساد ديانات التوسل[5] بالتأويل، ومن بابه دخلوا، وعلى أساسه بنوا، وعلى نقطه خطوا.

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب قصور أفهامهم ووفُورها، وأعظمهم توغلًا في التأويل الباطل من قصد[6] قصده وفهمه، كما سار قصده وقصر فهمه كان تأويله أشد انحرافاً، فمنهم من يكون تأويله لنوع هو[7] من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق،

---

(١) في إعلام الموقعين: من التحريف.

(٢) في إعلام الموقعين: فالتحريف.

(٣) في الإعلام: المتكلم بها.

(٤) في الإعلام: الأدواء.

(٥) في الإعلام: ديانات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالتأويل. . . .

(٦) في الإعلام: فسد.

(٧) في الإعلام: هوًى.

ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق، ومنهم من يجتمع له الأمران: الهوى في القصد، والشبهة في العلم.

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل، وصفِّين، والحرة، وفتنة ابن الزبير. . . وهلم جراً، بالتأويل، وإنّما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل، فما امْتُحِنَ الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل، فإنّ محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا في ظاهر التنزيل وتعللوا بالأباطيل؛ وهل الذي أراق دماء بني خزيمة[1] وقد أسلموا غير التأويل؟ حتى رفع رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم يديه فتبرأ[2] إلى الله من فعل المتأول لقتلهم وأخذوا[3] أموالهم؟ وما الذي أوجب تأخر الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية عن موافقة رسول الله ﷺ غير التأويل حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل؟ وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلماً وعدواناً وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ وما الذي سفك دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟ وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟!! وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟ وما الذي جرد الإمام أحمد بين العقابين وضَرْب السياط حتى عجّت الخليقة إلى ربها غير التأويل؟! وما الذي قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي، وخلّد خلقاً من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل؟ وما الذي سلّط سوق[4] التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل؟ وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل؟ وهل فتح باب التأويل إلا

(١) في الإعلام: بني جذيمة.
(٢) في الإعلام: وتبرأ.
(٣) في الإعلام: وأخذ أموالهم.
(٤) في الإعلام: سيوف.

مضادةً ومناقضةً لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتن[١] في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؟ فالتأويل بالألغاز والأحاجي والأغلوطات أولى منه بالبيان، وهي فرق بين رفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له، وبيّن ردّه وعدم قبوله، ولكن هذا ردّ جحود ومعاندة، وذاك رد خداع ومضائعة.

قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمّى بالكشف عن مناهج الأدلة[٢] ـ وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة ـ إلى أن قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾[٣]، وهؤلاء أهل الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيراً مما ظنوه ليس على ظاهره، وقالوا: «إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر[٤] الله به في صورة المتشابه ابتلاءً لعباده واختباراً لهم»، ونعوذ بالله من هذا الظن[٥] بالله، بل نقول: «إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان»، فما أبعد من مقصد الشرع من قال فيما ليس بمتشابه: إنه متشابه، ثم أوّل ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه في آية[٦] الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا أن ظاهره متشابه.

قال[٧]: «وبالجملة فأكثر التأويلات التي وهم القائلون أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجدت ليس يقوم عليها برهان» إلى أن قال: ومثال من أوّل شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوّله هو الذي قصده[٨] الشرع، مثال

---

(١) في الإعلام: امتنّ الله في كتابه.
(٢) انظر: الكشف عن مناهج الأدلة ص (٨٩).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٤) في الكشف عن مناهج الأدلة: أتى.
(٥) في الإعلام: ونعوذ بالله من سوء الظنّ بالله.
(٦) في الكشف عن مناهج الأدلة: آيات.
(٧) في الإعلام والكشف عن مناهج الأدلة: ثم قال.
(٨) في الكشف عن مناهج الأدلة: ومثال من أوّل شيئاً من الشرع، وزعم أن ما أوّله هو ما قصد الشرع وصرّح بذلك التأويل الجمهور، مثال... زعم القائلون بها أنّها...

من أتى دواء قد ركّبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع النّاس، أو الأكثر، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج ليس[1] مُعَرض إلا لأقل[2] من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمه[3] الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة، لم يرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة في اللسان أن يدلّ بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدل الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب، فقال[4] للناس: «هذا الذي[5] قصده الطبيب الأول»، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثرة من النّاس، فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة النّاس عن ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بدّلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول، فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول، فجاء ثالث فتأوّل في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني بثالث[6]، فعرض من ذلك للناس نوع[7] من المرض غير النوعين المتقدمين، فجاء متأول رابع فتأول دواءً آخر غير الأدوية المتقدمة، فعرض للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة، فلما طال الزمان لهذا[8] الدواء المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدوية، وغيّروها، وبدّلوها، عرضت منه للناس أمراض شتى حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حقّ أكثر الناس، فهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه

---

(١) في الإعلام وكشف مناهج الأدلة: كان به ليس.

(٢) في الإعلام وكشف مناهج الأدلة: للأقل.

(٣) في الإعلام: باسمها. وفي كشف مناهج الأدلة: الذي صرّح باسمه.

(٤) في الإعلام: وقال.

(٥) في الإعلام: هذا هو الذي.

(٦) محذوفة من إعلام الموقعين.

(٧) في الإعلام: نوع ثالث. وفي كشف مناهج الأدلة: فعرض للناس من ذلك.

(٨) في الإعلام: بهذا.

الشريعة[1]، وذلك أن كلّ فرقة منهم تأوّلت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه هو الذي قصده الشرع حتى تمزق الشرع كل ممزق، وبَعُدَ جداً عن موضوعه الأول، ولما علم صاحب الشرع[2] أن مثل هذا يعرض ولا بد في شريعته، قال صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»[3] يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تتأوله، وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبيّنتَ أن هذا المثال صحيح، وأول من غيّر هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية، ثم الصوفية، ثم جاء أبو حامد فطمّ الوادي على القرى، هذا كلامه بلفظه».

ولو ذهبنا لنستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين وما قالت الأمم قديماً وحديثاً بسببه من الفساد، لاستدعى ذلك عدة أسفار» انتهى كلام ابن القيم رحمه الله[4].

وقد قال قبل ذلك[5]: «إذا سئل عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة، الموافقة نحلته وهواه، ومن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه، وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرّح به أئمة الكلام قديماً وحديثاً.

قال أبو حاتم الرازي: حدثني يونس بن عبدالأعلى، قال: قال لي محمد بن إدريس الشافعي: «الأصل قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياس عليهما وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه

(١) في الإعلام: في هذه الشريعة مع الشريعة.
(٢) في الإعلام: صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٩٠/٤، ١٩٥).
(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١٨٩/٤، ١٩٠).

وسلم، وصح الإسناد فهو المنتهى، والإجماع أكثر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره أولى به، فإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيء، ما عدا منقطع ابن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل ولا يقال للأصل لِمَ، وكيف؟ وإنما يقال للفرع لِمَ، فإذا صح قياسَهُ على الأصح صحّ وقامت به الحجة»، ورواه الأصم عن ابن أبي حاتم.

وقال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية[1]: «ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به اتباع سلف الأمة وأئمتها، وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجّة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمثقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملّة والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً، أو محبوباً، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحقّ على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويَكِلُ معناها إلى الرب تعالى، وعندهم إمام القراء سيدهم الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]، من العزائم ثم الابتداء بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[3]، ومما استُحْسِنَ كلام مالك، إذ سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[4]، فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول،

---

(١) الرسالة النظامية ص (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٤) سورة طه، الآية: ٥.

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1] فليجر[2] آية الاستواء، والمجيء، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[4] وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[5]، وما صحّ من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه»، انتهى كلامه.

وقال أبو حامد الغزالي: «الصّواب للخلق سلوك في مسلك الإيمان المرسل، والتصديق المجمل، وما قاله الله ورسوله، بلا بحث وتفتيش».

وقال في كتاب التفرقة[6]: «الحق الاتباع، والكف عن تغيير الظاهر رأساً، والحذر عن ابتداع تأويلات لم يصرح بها الصحابة، وحسم باب السؤال رأساً، والزجر عن الخوض في الكلام والبحث... إلى أن قال[7]: ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظناً لا قطعاً، فإن كان فتح هذا الباب والتصريح به يؤدي إلى تشويش قلوب العوام يدع صاحبه، وكلّما[8] لم يؤثر عن السلف ذكره، وما يتعلق من هذا الجنس، بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع»، وقال[9]: كلّ ما لم يحتمل التأويل في نفسه، تواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم على خلافه برهان، فمخالفته تكذيب محض، وما تطرق إليه احتمال تأويل ولو بمجاز بعيد، فإن كان برهانه قاطعاً وجب القول به، وإن كان البرهان يُفيد ظناً غالباً ولا يعظم ضرره في الدين فهو بدعة، وإن عظم ضرره فهو كفر.

---

(١) صحيح عن مالك، أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية برقم (١٠٤)، وابن عبدالبر في التمهيد (١٥١/٧)، واللالكائي في السنّة (٣٩٨/٣)، والذهبي في العلو برقم (٣٤٤).

(٢) في إعلام الموقعين: فلتجر.

(٣) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٤) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٧.

(٥) سورة القمر، الآية: ١٢.

(٦) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص(١٨٨).

(٧) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص(١٩٠).

(٨) هكذا في الأصل والصّواب: كلّ ما.

(٩) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص(١٩٦).

قال[1]: ولم تجر عادة السّلف بالدعوة بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام، ويشتغل في البحث والسؤال.

وقال أيضاً: الإيمان المستفاد من الكلام ضعيف، والإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها.

قال: وقال شيخنا أبو المعالي: يحرض الإمام ما أمكنه جميع عامة الخليقة على سلوك سبيل السلف في ذلك. انتهى كلام ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين[2]، وبالله التوفيق.

❃ ❃ ❃

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ص(٢٠٣).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٨٩/٤، ١٩٠).

الفصل الرابع
في مآل علم الكلام والجدال إلى الحيرة في الحال والشك والضلال في المآل

قال ابن رشد في «تهافت التهافت»: ومن ذا الذي قال في الإلٰهيات شيئاً يعتد به[1].

قال القرطبي في «شرح مسلم»[2]، وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام بعد انقضاء أعمار مديدة وآماد بعيدة، لمّا لطف الله بهم، وأظهر لهم آياته وباطن برهانه، منهم إمام المتكلمين، أبو المعالي[3]، فقد حكى عنه الثقات، أنه قال: لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك رغبة، في طلب الحق، وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل، بكلمة الإخلاص والويل لابن

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي ص(٢٠٨).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٩٢).

(٣) هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيُّوَه، إمام الحرمين المكنّى بأبي المعالي والملقب بضياء الدين، ولد سنة ٤١٩ هجرية، وتفقّه على والده، وجدّ واجتهد حتى أحكم العلوم والفنون ثم تصدّر للتدريس والتأليف، اشتغل بعلم الكلام، ثم رجع عنه آخر حياته، ونصيحته ووصيته في ذلك مشهورة، توفي رحمه الله سنة ٤٧٨ هجرية.

الجويني، وكان يقول لأصحابه: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما تشاغلت به»[١]. انتهى.

وزاد علي القاري رحمه الله فذكر أنه قال: «وا أنا ذا أموت على عقيدة أمي، ـ أو قال ـ على عقيدة عجائز نيسابور»[٢].

وكذا قال الخسروشاهي[٣] لبعض الفضلاء: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به، قال: نعم، فقال: الشكر لله على هذه النعمة، لكن والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى اخضلت لحيته.

وقال الخرنجي[٤] عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً، سوى أن الممكن مفتقر إلى مرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً.

وكذلك الغزالي رحمه الله: انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم فمات وصحيح البخاري على صدره[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام وفيات (٤٧٨) ص(٢٣٥)، وشرح العقيدة الطحاوية ص(٢٠٩).

(٢) شرح الفقه الأكبر ص(١١) وشرح العقيدة الطحاوية ص(٢٠٩) وتاريخ الإسلام وفيات (٤٧٨) ص(٢٣٥)، وسير أعلام النبلاء ٤٧٤/١٨.

(٣) شرح الفقه الأكبر ص(١١) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص(٢٠٩). والخسروشاهي هو عبدالحميد بن عيسى بن عمرو بن يوسف التبريزي ولد سنة (٥٨٠)هـ وتوفي سنة (٦٥٢)هـ [شذرات الذهب (٢٥٥/٥) وطبقات الشافعية (٦٥/٥) ومعجم المؤلفين (٦٤/٢)].

(٤) هكذا في الأصل، وفي شرح الفقه الأكبر ص(١٢) وشرح العقيدة الطحاوية ص(٢٠٩) الخونجي: وهو محمد بن ناور بن عبدالملك ولد سنة (٥٥٩) وتوفي سنة (٦٤٦)هـ [سير أعلام النبلاء (٢٢٨/٢٣) وطبقات الشافعية (١٠٥/٨، ١٠٦) وشذرات الذهب (٢٣٦/٥)].

(٥) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص(٢٠٨).
قال الذهبي في تاريخ الإسلام وفيات سنة (٥٠٥) هجرية ص(١١٨): «وكانت خاتمة أمري ـ أي الغزالي ـ إقباله على طلب حديث المصطفى ﷺ، ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام» اهـ.

وكذا الرازي قال:

العلم للرحمٰن جل جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنّما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وقال أيضاً:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وله بالفارسية:

هركز دل من رعلم محروم نشد ... كم بودزاسرار كه مفهوم نشد
منقاد وسال مشق كروم شب ... وروز معلوم مشد كه يهيم معوم نشد

وقال الصوفي الصافي الدهلوي رحمه الله بالهندية: آياجو وجودين هو معدوم هو أدبي سمهجي تهي سب جوكيجة كه مفهوم هو اسمجهي اتناكه كحيه تشمهي أفسوس معلوم هواكه كحجيرنه معلوم هوا.

قال في البرهان القاطع في إثبات الصانع[1]: «وهذا الرازي سلطان العلماء، وحجة الحكماء، وفخر الملة، وشُعلة الذكاء، وفيلسوف الإسلام، بعد أن أنهج[2] الطريق الفلسفية، وسلك مسالك الخفية، ينشد في كتابه النهاية.

العلم للرحمٰن.. إلخ[3].

(١) البرهان القاطع في إثبات الصانع لابن الوزير اليمني ص(٩٨).
(٢) في المرجع السّابق: انتهج.
(٣) تكملة الأبيات في المرجع السّابق هي:
العلم للرحمٰن جلّ جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب من العلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنّه لا يعلم =

ويقول في وصيته التي مات عليها: ولقد اختبرت[١] الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكليّة للّه تعالى، ويمنع التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضائق العميقة، والمناهج الخفية».

وقال أيضاً: «ما رأيت في الطرق الكلامية ما يشفي عليلًا، أو يروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طرق القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٢]، و﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٣] واقرأ في النفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٤]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[٥]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي»[٦].

وقال بعضهم:

وكم في البرية من عالم ... قويّ الجدال دقيق الكلم
سعى في العلوم فلمّا يفد ... سوى علمه أنّه ما علم

وقال الشهرستاني[٧] في أول نهايته، أنه لم يجد عن الفلاسفة

= وينشد فيه أيضاً:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

(١) في المرجع السابق: اجتربت.

(٢) سورة طه، الآية: ٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٦) ما بين المعكوفتين محذوف من البرهان القاطع في إثبات الصانع، وانظر كذلك شرح العقيدة الطحاوية ص(٢٠٩) والفتوى الحموية ص(٧).

(٧) هو محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني أبو الفتوح فقيه متكلم، ولد بشهرستان سنة ٤٦٧هـ ورحل إلى بغداد ونيسابور وسمع منها ثم عاد إلى شهرستان وتوفي بها سنة ٥٤٨هـ، من تصانيفه: الملل والنحل، نهاية إقدام العقول وغيرها. =

والمتكلمين إلا الحيرة والندم، ثم قال[1]:

«لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيّرت طرفي بين تلك المعالم»
«فلم أرَ إلاّ واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سنّ نادم»[2].

وزاد القرطبي[3] فذكر أنه قال: عليكم بدين العجائز، فإنه أسنى الجوائز.

وقال صاحب الإلمام[4]:

تجاوزت حدّ الأكثرين إلى العلا ... وسافرت واستبقيتهم في المراكز
وخضت بحاراً ليس يدرك قعرها ... وسيّرت نفسي في فسيح المفاوز
ولجِجت في الأفكار ثم تراجع اخـ ... تياري إلى استحسان دين العجائز

وقال أحمد بن سليمان[5]: «كان الوليد بن أبان[6] خالي، فلما حضرته الوفاة، قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم مني، قالوا: لا، قال: فتتهموني، قالوا: لا، قال فإني أوصيكم، أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم».

وقال أبو الوفا بن عقيل[7]: «لقد بالغت في الأصول طول عمري، ثم عدت القهقرى إلى مذهب المكتسب». المكتب أي الكتاب الذي يتعلم فيه الصبيان القرآن [illegible]

= لسان الميزان لابن حجر (٥/٢٦٣، ٢٦٤) وشذرات الذهب (١/١٤٩) والأعلام للزركلي (٧/٨٣، ٨٤) ومعجم المؤلفين (٣/٤٢٢).

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام، الصفحة الأولى.

(٢) مقدمة نهاية الكلام في علم الكلام للشهرستاني وشرح العقيدة الطحاوية ص(٢٠٩).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٩٣).

(٤) انظر كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير ص(٤٤).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٩٢).

(٦) هكذا في الأصل وهو تصحيف من سنان، كما هو في سير أعلام النبلاء (١٠/٥٤٨) وكما في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٩٢). والوليد بن أبان الكرابيسي توفي سنة ٢١٤هـ [سير أعلام النبلاء (١٠/٥٤٨) تاريخ بغداد (١٣/٤٤١)، معجم المؤلفين (٤/٧٦)].

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦٩٢).

وقال ابن أبي الحديد[1] كبير المعتزلة، رئيس المتكلمة:

«فإذا الذي استكثرت منه ألجأني شكر، على عظائم المحن»
«فضللت في تيه بلا علم وغرقت في يم بلا سفن»

وهكذا قال كثير من متكلمي الفرق الضالة، فضلًا عن متكلمي أهل السنة، وكذا كثير من أئمة العترة اليمانية وغيرهم.

وقال الإمام محمد الشوكاني رحمه الله في رسالة إجراء الصفات على ظاهرها[2]: «أعترف كثير من هؤلاء المتكلمين أنه لم يستفد من تكلمه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح، إلا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلمين[3]، وها أنا أخبرك عن نفسي، وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي، فإني في أيّام الطلب وعنفوان الشباب، شغلت بهذا العلم، الذي سمّوه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم أصول الدين، ما كبَّ على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورمت الرجوع بفائدة، والعود بعائدة، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة، وكان ذلك من الأسباب التي حُبّب إليّ مذهب السلف، على أني كنت من قبل ذلك عليه، ولكن أردت أن أزداد فيه بصيرة وبه شغفاً، وقلت عند النظر في تلك المذاهب:

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر

---

(١) هو عبدالحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد ولد سنة (٥٨٦)هـ، وتوفي سنة (٦٥٥)هـ وكان معتزلياً. [انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٧٤) وفوات الوفيات (٢/٢٥٩) والأعلام (٣/٢٨٩)].

(٢) هذه الرسالة مطبوعة باسم «التحف في مذاهب السلف» وانظر كلام الشوكاني فيها ص(٢٥).

(٣) في التحف في مذاهب السّلف: المتكلفين، وذكر بعدها الشوكاني بيتين للشهرستاني في ذم علم الكلام وهما:

لقد طفت في تلك المعاهد كلّها وسيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلاّ واضعاً كفّ حائر على ذقن، أو قارعاً سنّ نادم

هو الوقف ما بين الطريقتين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير[1]

انتهى.

ثم قال بعد بيان تباين المذاهب، وتفاوت الطرائق، وتخالف النِحل في مسألة الصفات ما نصه[2]: «ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم، فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية بطريق الخلف، أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز، وقالوا: «هنيئاً للعامّة»، فتدبر هذه الأعلمية التي كان حاصلها أن يهنّي من ظفر بها لأهل الجهل البسيط، ويتمنى أنه في عدادهم وممن يدين بدينهم، ويمشي على طريقهم، فإن هذا ينادي وبأعلى صوت، ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التي طلبوها، الجهل خير منه بكثير، فما ظنكم بعلم يقرّ صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه، ويتمنى عند البلوغ إلى غايته والوصول إلى نهايته، أن يكون الناقلون ما يماثلها ويشابهها؟

وإذا كان هذا حال هذه الطائفة، التي عرفناك أنها أخف الطوائف تكلفاً وأقلها تبعة، فما عنك بما عداها من الطوائف التي قد ظهر فساد مقاصدها، وتبيّن بطلان مواردها ومصادرها، كالطوائف التي أرادت بالمظاهر التي تظاهرت بها كبار الإسلام وأهله، والتشكيك فيه، بإيراد الشبهة والتقريرات المفضية إلى القدح في الدين، وتغيير أهله عنه، وعند هذا يعلم ما قيل:

«وخير الأمور السالفات على شكر الهدى
وشر الأمور المحدثات البدائع»

انتهى[3].

❀ ❀ ❀

(١) التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص(٢٥).

(٢) التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص(١٦، ١٧).

(٣) التحف في مذاهب السلف ص(١٨).

الفصل الخامس
في بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

قال الغزالي رحمه الله في الإحياء(١): «اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية، تحريف [جاهلًا به، عاطلًا عنه، ففي هذا عبرة للمعتبرين، وآية بينة للناظرين، فهلا علموا على جهل هذه المعارف التي دخلوا فيها بادىء ذي بدء، وسلّموا من تبعاتها، وأراحوا أنفسهم من تعبها، وقالوا كما قال القائل: «وأي الأمر يفضي إلى آخر فيصير آخره أولًا»، ورجوا الخلوص من هذا التمني والسّلامة من هذا التنبيه للعامة، فإن العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها، ولا يُتهنىء لمن هو مثله أو دونه، بل لا يكون ذلك إلا لمن رتبته أرفع من رتبته، ومكانه أعلى من مكانه، فيا لله العجب من علوم، يكون الجهل البسيط أعلى رتبته منه، وأفضل مقداراً بالنسبة إليه، وهل سمع السّامعون بمثل هذه الغريبةِ أو نقل](٢) الأسامي المحمودة، وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة، إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة، فهذه أسامي محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها، لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤٩/١، ٥٨) مختصراً.

(٢) ما بين المعكوفتين محذوف من إحياء علوم الدين.

اللفظ الأوَّل الفقه: فقد تصرفوا فيه بالتخصيص بالنقل[1] والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيه، أو أكثر اشتغالاً بها، يقال هو الأفقه، وكان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريقة الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[2]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هذا هو[3] الفقه، دون تفريعات الطلاق، والعتاق، واللعان، والسلم، والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار، ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[4]، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به، قديماً وحديثاً، وسئل الزهري أي أهل المدينة أفقه؟ قال: أتقاهم لله، وسأل الفرقد الحسنَ عن شيء فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمك فريقد، هل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح بجماعتهم، ولم يقل في جميع ذلك، الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقول: أن اسم الفقه لم يكن متناولًا للفتوى، ولكن كان بطريق العموم أو الاستتباع، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعض الناس على التجرد له، والتوصل به إلى طلب

---

(١) في إحياء علوم الدين: لا بالنقل والتحويل.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) في إحياء علوم الدين: هو هذا.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

الولاية، والقضاء، والجاه، والمال[1].

اللفظ الثاني العلم: وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه حتى إنه لما مات عمر قال ابن مسعود: «لقد مات تسعة أعشار العلم»، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرؤون القرآن يقولون: نأتي الأمر، فنصيب من دنياهم نعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يحبسني من القثاء إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا**» قال محمد بن الصباح، كأنه يعني الخطايا. رواه ابن ماجه.

قال عبدالله بن مسعود: ولو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم فهانوا عليهم. رواه ابن ماجه عن سفيان ابن عمر بن الخطاب قال لكعب: من أرباب العلم؟ قال: يعملون بما يعلمون. قال: فما أخرج العلم من قلوب العلماء إلا الطمع. رواه الدارمي.

وعن زياد بن حديد قال: قال لي عمي: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: زلة العالِم وجدال المنافق وحكم الأئمة المضلين. رواه الدارمي (من الحاشية).

قال ابن طولون الدمشقي في كتابه نقد الطالب لزغل المناصب ص(١١٩).

ومنهم ـ أي من الذين زغلوا في هذا المنصب (الفقه) ـ فرقة لا تترك الصلاة، ولكنّها أحبّت العلم والمناظرة، وأن يقال فلان اليوم فقيه البلد، حبّاً اختلط بلحمها وعظمها، فاستغرقت فيه أكثر أوقاتها، واستهانت بالنوافل، ونسيت القرآن المجيد بعد حفظه، وشمخت بآنافها مع ذلك وقالت: نحن العلماء، وإذا قامت لصلاة الفريضة قامت أربعاً لا تذكر الله تعالى فيها إلّا قليلًا، مزجت صلاتها بالفكر في دقائق الجنايات. وربّما جاء ليقول: «إيّاك نعبد وإياك نستعين» فسبق لسانه إلى ما هو مفكّر من جزئيات الفروع، فينطق به.

ثم إذا سألت واحداً منهم: أصليت سنّة الظهر؟، قال لك: قال الشافعي رضي الله عنه: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. أخشعت في صلاتك؟ قال لك: ليس الخشوع من شرائط صحة الصلاة. أنسيت القرآن؟ قال لك: لم يقل إن نسيانه كبيرة إلّا صاحب العدّة، وما الدليل على ذلك، وأنا لم أنس الجميع فإني أحفظ الفاتحة وكثيراً من القرآن غيرها.

فقل له: أيها الفقيه! كلمة حقّ أريد بها باطل، إن الشافعي لم يعن ما أردت، ولكلامه تقرير، لسنا له الآن، ويخشى على من هذا شأنه المروق من الدين رأساً اهـ.

وانظر الكلام على العلم في أبجد العلوم لصديق حسن خان (٢/٤٠٠، ٤١٣) ومقدمة ابن خلدون ص (٤١٦، ٤٢٣).

الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم، وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء، أكثره في العلماء بالله تعالى وأحكامه، وبأفعاله وصفاته، وقد صار الآن يطلق على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية، فيعد بذلك في فحول العلماء، مع جهله بالتفسير، والأخبار، وعلم المذاهب وغيره، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من طلبة العلم.

اللفظ الثالث التوحيد: وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بمناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها، بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات، وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير، على من كان يفتح باباً من الجدل والممارات، فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة، التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفقهه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله رؤية، تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كلّه إلا منه، ويعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوداً، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]، فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، فانظر إلى ماذا حول، وبأي قشر قنع، فالموحد هو الذي لا يرى إلا الواحد، ولا يوجه وجهه إلا إليه.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

اللفظ الرابع الذكر والتذكير:

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[١]، وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، وهو القصص والأشعار والشطح، والطامات، أما القصص، فهي بدعة، ولم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، ولا أبي بكر، ولا عمر، حتى ظهرت الفتنة، وظهر القصاص، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصّاص، وأما الأشعار، فتكثيرها في المواعظ مذموم. قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾[٢] ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[٣]، أما الشطح[٤]، فأحدثه بعض المتصوفة وعظم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى، وأما الطامات، فهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة، إلى أمور باطنة،

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) الشعراء، الآيتان: ٢٢٤، ٢٢٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٤) كقول المنصور: أنا الحق، وكقول بعضهم: سبحاني ما أعظم شأني، ويقرب منه ما قيل بالفارسية... وغير ذلك من الأرحام والظنون التي تُبكم بها الأسماع وتبكي بها العيون، فسبحان الله عما يصفون. (الحاشية).

الشطح عند الصّوفية هو عبارة عن كلام كفري بحت لا مراء فيه ولا جدال، يصدر منهم وهم في كامل قواهم العقلية، وليس كما يقولون في حالة السكر.

ومن أمثلة الشطح عند الصّوفية قول ابن عربي: «أنا أصغر من ربّي بسنتين»، وقول أبي يزيد البسطامي «سبحاني سبحاني»، وكقول الحلاّج: «أنا الحق». وكقول الشبلي: «لو خطر ببالي أنّ الجحيم نيرانها وسعيرها تحرق منّي شعرة كنت مشركاً» وكقوله: «إنّ لله عباداً لو بزقوا على جهنّم لأطفئوها» وكقول أبي الحسن النوري: «أنا أعشق الله وهو يعشقني».

هذا هو الشطح عند الصوفية فهل يشك فيه ذو دين أنه ليس بكفر!!

لمزيد من الفائدة في هذا الموضوع عليك بكتاب «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنّة» للشيخ عبدالرحمٰن عبدالخالق.

وهذا أيضاً حرام وضرره عظيم(١).

اللفظ الخامس هو الحكمة: فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب، والشاعر، والمنجم على الذي يدحرج القرعة، والحكمة هي التي أثنى الله تعالى عليها ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٢) فانظر إلى ماذا نقل وقس به بقية الألفاظ، واحترز عن اغترار تلبيسات علماء السوء، فإن شرهم على الدين أعظمُ من شر الشيطان، وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور، وتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، ومنا أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث، وقد صحّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي**»(٣) وفي خبر آخرهم: «**المتمسكون بما أنتم عليه اليوم**» وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها، ولذلك قال الثوري رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلّط، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه». هذا آخر كلامه ملخصاً، وبالله التوفيق(٤).

❃ ❃ ❃

---

(١) تفصيل المسألة في: [التصوّف المنشأ والمصادر للشيخ إحسان إلٰهي ظهير ص(٢٤٣، ٢٥٩) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسّنة للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ص(٦٤٠، ٦٤٧)].

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٥٨٦٧) والصغير (٢٩٠) وسنده صحيح. انظر الصحيحة (٦٨٤/١).

(٤) إحياء علوم الدين (٤٩/١/٥٨) مختصراً.

الفصل السادس
في بيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قال الغزالي رحمه الله في الإحياء[1] بعد ذكر الأخبار والآثار الواردة في ذم العلماء السوء: هذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا، أخس حالًا وأشد عذاباً من الجاهل، وإن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة، ولهم علامات، منها:

أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا، وخستها، وانصرامها، وعظم الآخرة، ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت أحدهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت أحدهما خفّت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقَدَحين أحدهما مملوء، والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر.

ومنها: أن لا يخالف فعلُه قولَه، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به[2]، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ

(١) إحياء علوم الدين (١/٩٢، ١٢٨) مختصراً..

(٢) قال الشاعر:

أَنفُسَكُمْ﴾(١).

وقـــال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾(٢)، وقال في قصة شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾(٣)، وقال ابن مسعود: «أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم دراسته عملًا، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم» وفي مثله قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(٤) ومما أخاف على أمتي زلة عالم، وجدال منافق في القرآن.

ومنها: أن تكون عنايته تحصيل العلم النافع في الآخرة، المرغب في الطاعة، مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها، ويكثر فيه الجدال، والقيل والقال(٥).

ومنها: أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب، والتنعم في الملبس، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع

= يـا أيـهـا الـرجـل الـمـعـلـم غـيـره ... هـلاً لـنـفـسـك كـان ذا الـتـعـلـيـم
تصف الدّواء من السقام لذي الضّنى ... ومن الضّنى - مذ كنت - أنت سقيم
ما زلت تلقح بالرّشاد عقولنا ... صفةً وأنت من الرّشاد عديم
ابدأ بنفسك فإنها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وكذلك قول الآخر:

مواعظ الواعظ لن تقبلا ... حتى يعيها قبله أوّلا
يا قوم من أظلم من واعظ ... خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه ... وبارز الرحمٰن لما خلاَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف، الآية: ٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٥) قال الشافعي:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلاّ الحديث وإلاّ الفقه في الدين
العلم ما كان فيه «قال حدّثنا» ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

ذلك، ويتشبه فيه بالسلف، ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك، وكلما ازداد إلى طرف القلة ميله، ازداد من الله قربه، وارتفع في علماء الآخرة حزبه. انتهى.

ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلًا، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم، وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة[١]، وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم مع أنهم ظَلَمة، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم، وتضييق صدورهم بإظهار ظلمم، وتقبيح فعلهم[٢].

ومنها: أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا، بل يكون متوقفاً محترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلًا، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله، أو بنص حديث، أو إجماع، أو قياس جلي، أفتى، وإن سئل عما يشك فيه، قال: لا أدري[٣] وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط، ودفع عن

---

(١) هذا لفظ الحديث، ورواه عن الصحابة ثلاثة عشر نفساً، وأخرجه الشيخان وأبو داود والطبراني في معجمه عن العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله تعالى عنهم [الحاشية].

(٢) قال الجرجاني:

يقولون لي فيك انقباض وإنّما ... رأوا رجلاً عن موقف الذلّ أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزّة النفس أُكرما
وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزّني ... ولا كلّ من لاقيت أرضاهُ مُنعمَا
وإنّي إذا ما فاتني الأمر لم أبتْ ... أقلّب كفّي إثره متندّمَا
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا طَمَعٌ صيّرته ليَ سُلّمَا
وإذا قيل هذا مَنهَل قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظَّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأَخدُمَ من لاقيت، لكن لأخدمَا
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّة ... إذاً، فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صَانَهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظّما
ولكن أذلّوه فهان، ودنّسوا ... مُحياهُ بالأطماع حتى تهجّما

(٣) قال ابن جماعة الكناني: واعلم أن قول المسؤول «لا أدري» لا يضع من قدره كما يظنّه بعض الجهلة، بل يرفعه، لأنه دليل عظيم على عظم محلّه وقوّة دينه، وتَقْوى ربّه، وطهارة =

نفسه، وأحال على غيره إن كان في غيره غنيته، هذا هو الحزم، وكان الصحابةُ يتدافعون أربعة أشياء: الإمامة، والوصية، والوديعة، والفتيا.

وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا، أقلهم علماً، وأشدهم دفعاً لها أورعهم، وكان شغل الصحابة والتابعين في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه تعلم علم الباطن(١) ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة.

ومنها: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين، وقليل اليقين خير من كثير العمل.

ومنها: أن يكون حزيناً، منكسراً، مطرقاً، صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته، وكسوته، وسيرته، وحركته وسكونه، ونطقه وسكوته، لا ينظر إليه ناظر، إلا وكان نظره مذكراً لله تعالى، وكانته صورته دليلًا على عمله، فالجواز عينه مزاره، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة، والذلة، والتواضع.

ومنها: أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسد الأعمال

= قلبه، وكمال معرفته، وحُسن ثبْته، وقد روينا معنى ذلك عن جماعة من السلف وإنّما يأنف من قول «لا أدري» من ضعفت ديانته وقلّت معرفته، لأنّه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة وَرِقّة دين، وربّما يُشهِرُ خطاؤه بين الناس، فيقع فيما فرّ منه، ويتصف عندهم بما احترز عنه، وقد أدّب الله تعالى العلماء بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام حين لم يرد موسى عليه الصلاة والسلام العلم إلى الله تعالى لما سئل: هل أحد في الأرض أعلم منك؟» اهـ.
[تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني ص(٤٢، ٤٣).

(١) المقصود: العالم الذي يزكي النفس ويطهر القلب، وليس هو الاصطلاح الصوفي البدعي المعروف.

ويشوش القلوب، ويهيج الوسواس، ويثير الشر، فإن أصل الدين التوقي من الشر[١].

ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته، وإدراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف[٢]، والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلّد صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه في ما أمر به وقاله، وإنما يقلد أصحابَهُ من حيث أن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وإن اتفق عليه الجمهور، فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة، وسيرتهم، وأعمالهم، وما كان فيه أكثر همهم أكان في التدريس، والتصنيف، والمناظرة، والقضاء، والولاية، وتولي الأوقاف، والوصايا، ومال الأيتام، ومخالطة السلاطين، ومجاهلتهم في العشرة، أم كان في الخوف، والحزن، والتفكر، والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن، واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس، ومكائد الشيطان، إلى غير ذلك من علوم الباطن.

واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق، أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين، قال الحسن: «محدثان أحدثا في الإسلام، رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب، ولها يرضى، وإياها يطلب، فارفضوها إلى النار، وإن رجلًا أصبح في هذه الدنيا بين مترف، يدعوه إلى

---

(١) وقد قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه

(٢) والمراد بها ما سوى النصوص الصحيحة من أمثال الآراء المؤلفة وإلا فلا وجه للعرض عن الأخبار والآثار المعقدة الصريحة، بل الأمر فيها على العكس كما هو اللائح مما سيأتي. [الحاشية].

دنياه، وصاحب هوىً يدعوه إلى هواه، وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم، ويقتفي آثارهم، معترض لأجر عظيم، فكذلك كونوا»، قال بعض العلماء: «ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف»، وقال غيره: «الحق ثقيل، من جاوزه ظلم، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى»، وقال ابن عباس: «الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها»، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوًا وَلَعِبًا﴾[2]، فكلما أحدث بعد الصحابة، عما جاوز قدر الضرورة والحاجة، فهو من اللعب واللهو، فهذه اثنا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تجمع كل واحد منها، جملات من أخلاق علماء السلف، فكن أحد رجلين، إما متصفاً بهذه الصفات، أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك، بأن تلقب آلة الدنيا بالدين، وسيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين، نعوذ بالله من خدوع الشيطان، فبها هلك الجمهور، فنسأل الله تعالى، أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا، ولا يغره بالله الغرور، هذا آخر كلامه رحمه الله ملخصاً وقد أطال في بيان كل علامة من هذه العلامات، تركناها اختصاراً. وبالله التوفيق.

❀ ❀ ❀

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

الفصل السابع
في صفة العالم الربَّاني

قال الشيخ الأجل ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله في «القول الجميل، في بيان سواء السبيل»: العالم الرباني الذي يكون وارث الأنبياء والمرسلين هو: من يحافظ على أمور منها: أن يدرس[1] العلم من التفسير،

---

(١) ذكر الشيخ الموصوف في التفهيمات رضي الله عنه بداية من أراد تحصيل هذه الدورة فعليه أن يقرأ القرآن بموضحه ثم لا يزال يتلوه، فإن فيه تذكر أيام الله. وفيه القصص المرفقة وفيه المواعظ وفيه المخاصمات، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم إلى ذلك حيث ذكر في حديث سؤال المنكر والنكير أنهما يسألان عن المؤمن بما ثبت ذلك عندك، يقول: تلوت كتاب الله سبحانه.

وعليه أن يأخذ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ما استطاع مما يرفق جلسائه ـ، ويهذب أخلاقه، ويقيم عقيدته، ويعلمه السنة والسيرة، أما من اشتغل بالزائد عن القدر المحتاج إليه في موضح القرآن والحديث من فنون العربية، وبالعميق من علم أسماء الرجال وغيره، بالتاريخ وبالأصول وبالفقه المتداول بين الناس اليوم وبالكلام سائر الفنون فهو من علماء زهرة الحياة الدنيا، ليس له في حقيقة الإيمان موضوع نقي، وكذلك الاشتغال بأوراد المشائخ الصوفية ومقاماتهم، ليس ينفع في ذلك أصلًا ويلزم على نفسه أن يكون له في كل يوم وليلة وساعة يذكر فيها الموت يذكر عذاب الله سبحانه ويذكر عظمته سبحانه، وساعة يسبح فيها الله سبحانه ويهلله ويكبره بحيث لا يبقى في قلبه إذ ذاك مطموع في غيره، وليلازم الطاعات المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم دون ما يؤثر عن غيره وجعله وظائفه صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم في الصلاة المكتوبة أول الأوقات بطمأنينة وترتيل قراءات وحضور قلب وابتهال والتهجد والضحى، والسنة في التهجد أن يقرأ نحو من مائتي آية ومن =

والحديث، والفقه، والسلوك، والعقائد، والنحو، والصرف، ليس له أن يشتغل بالكلام والأصول والمنطق، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾(١)، وما يجب في التدريس مراعاته أشياء، شرح الغريب لغة، والعويص المغلق نحواً، وتوجيه المسائل بأن يصورها بالأمثلة الجزئية، ويبين حاصلها، وتقريب الدلائل لتحصل النتيجة بلزوم بعض المقدمات، واندراج بعضها في بعض، وفوائد القيود في التعريفات والقواعد الكليات، ووجوه الحصر في التقسيمات ودفع الشبهات الظاهرة، كمختلفين يرى أنهما مشتبهان، ومشتبهين يرى أنهما مختلفان من المذاهب والتوجيهات والعبارات، وكلزوم ما يمتنع في التعريفات كاستدراك، وذكر الأخفى، والبراهين كجزئية الكبرى، وسلب الصغرى، أو قادح في اللزوم والاندراج، أو مخالفة بعبارة أخرى، أو لكلام إمام من الأئمة، فالعالم لا يفيد تلامذته فائدة تامة حتى يبين هذه الأمور، ثم ينبه عليها في درسه.

ومنها: أن يلقن الأشغال، وقد ذكرناها بالتفصيل، وليكن له وقت يجلس فيه مع الناس، متوجهاً إليهم، يلقي عليهم السكينة، فإن حجة الله تعالى لا تتم إلا باستطاعته الممكنة ثم الاستطاعة الميسرة، ومن الثانية الصحبة والحث على الاشتغال، قولًا، وفعلًا، وتصرفاً بالقلب. والله أعلم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(٢).

ومنها أن يتخولهم بالموعظة، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه

= الصلوات الموقتة بأسبابها، صلاة الكسوف والاستسقاء والتحية والاستغفار، وفي الصيام: رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء وتسعة من ذي الحجة، ومن الصدقات إن كان له مال فما ذكر في الأحاديث مفصلًا وإلا فصدقة الفطر صاع من كل شيء بانبساط القلب وانشراح الصدر ولا يكفي عنده طعام إلا وفيه طعمة للمساكين ولا ثياب إلا وله فيها ثوب لهم. انتهى بعبارته [الحاشية].

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وآله وأصحابه وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝﴾[١]، وليجتنب القصص، فقد روينا في الأصول أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، وأصحابه من بعده، كانوا يخولون بالموعظة، وروينا في سنن ابن ماجه[٢] وغيره أن القصص لم تكن في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، ولا في زمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وروينا أن الصحابة كانوا يخرجون القصاص من المساجد، فعلمنا أن القصص غير موعظة وأنه مذموم[٣]، وأنها محمودة، فالقصص هو أن يذكر الحكايات العجيبة، النادرة

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٩.

(٢) سنن ابن ماجه في كتاب الأدب/ عن ابن عمر: قال: «لم يكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ولا في زمن أبي بكر ولا في زمن عمر».

(٣) المقصود بالقصص المذموم هو ما كان مخترعاً مكذوباً، وكثير من الناس يخلط بين القصص والتذكير والوعظ، ولقد فصّل ذلك ابن الجوزي بتفصيل دقيق فقال:
القاص: هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكايات عنها والشرح لها وذلك القصص.
وهذا في الغالب عبارة عمّن يروي أخبار الماضين.
وهذا لا يُذمّ لنفسه لأنّ في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر، واقتداء بصواب لمتبع، وإنّما كره بعض السّلف القصص لأحد ستة أشياء:
أحدها: أنّ القوم كانوا على الاقتداء والاتباع، فكانوا إذا رأوا ما لم يكن على عهد رسول الله ﷺ أنكروه.
والثاني: أنّ القصص لأخبار المتقدمين يندر صحته، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل، وما يذكر في قصة داوود ويوسف من المحال الذي ينزّه عنه الأنبياء، بحيث إذا سمعه الجاهل هانت عنده المعاصي.
الثالث: أنّ التشاغل بذلك يشغل عن المهمّ من قراءة القرآن ورواية الحديث والتفقه في الدين.
الرابع: أنّ في القرآن من القصص، وفي السّنة من العظة ما يكفي عن غيره ممّا لا يُتيقن صحته.
الخامس: أنّ أقواماً قصّوا فأدخلوا في قصصهم ما يفسد قلوب العوام.
السادس: أن عموم القصاص لا يتحرّون الصواب، ولا يتحرزون من الخطأ، لقلة علمهم وتقواهم.
فلهذا كره القصص من كرهه.
قال: وأمّا التذكير فهو تعريف الخلق نعم الله عزّ وجل عليهم، وحثّهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته. =

ويبالغ في فضائل الأعمال أو غيرها، بما ليس بحق ولا يقصد في ذلك تدريج تلقينهم السنة وتمرينهم لها، بل التشدق والإعجاب والتميز عن الناس، بفصاحة وحسن إيراد الحكايات والأمثال.

ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوضوء، والصلاة، بأن يرى أحداً لا يستوعب الغسل، فينادي: «ويل للعراقيب من النار»[1]، أو لا يتم الطمأنينة، فيقول: «صل فإنك لم تصل»[2]، وفي اللباس، والكلام، وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[3]، والآداب فيهما، الرفق واللين، وإنما العنف والشدة شأن الأمراء والملوك، قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

ومنها مواساة الفقراء، وطالبي العلم بقدر الإمكان، فإن لم يقدر وكان له إخوان موافقون حرضهم وحثهم على المواساة، فإذا وجدت هذه الصفات مجتمعة في شخص واحد، فلا تشكنّ أنه وارثُ الأنبياء والمرسلين، وأنه الذي يدعى في الملكوت عظيماً، وأنه الذي يدعو له خلق الله حتى الحيتان في جوف الماء، كما ورد في الحديث[5]، فلازمه لا يفوتنك، فإنه الكبريت الأحمر. والله أعلم.

= وأمّا الوعظ فهو تخويف يرقُّ له القلب.
وهذان محمودان.
قال: وقد صار كثير من الناس يطلقون على الواعظ اسم القاص، وعلى القاصّ إسم المذكِّر. والتحقيق ما ذكرناه اهـ. [تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطي ص(٢٦٩، ٢٧١)].

(١) بهذا اللفظ أخرجه ابن ماجه برقم (٤٥٢) وأحمد في المسند (٣/٢٠١، ٤٧١)، والحديث أخرجه البخاري برقم (٦٠) ومسلم برقم (٢٤٠) وأصحاب السنن بلفظ **«ويل للأعقاب من النار»**.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٥) الحديث أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١) والترمذي برقم (٢٦٨٢) وابن ماجه برقم (٢٢٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٠٩٦).

واعلم أن كل من انتصب منصب الهداية والدعوة إلى الله، متى ما أخل في شيء من هذه الأمور، فإن فيه ثلمة حتى يسدها، وأنا أوصي(١) لطالب الحق بأمور:

منها: أن لا يصحب الأغنياء إلا لدفع مظلمة عن الناس، أو بعث عامتهم على الخير، وهذا هو وجه التوفيق بين الأحاديث، الدالة على ذم صحبة الملوك، وبين ما صحبهم كثير من العلماء البررة.

ومنها: أن لا يصحب جهال الصوفية، ولا جهال المتعبدين، ولا متقشفة من الفقهاء، ولا الظاهرية من المحدثين، ولا الغلاة من أصحاب المعقول والكلام، بل يكون عالماً صوفياً، زاهداً في الدنيا، دائمَ التوجه إلى الله، منصبغاً بالأحوال القلبية، راغباً في السنة، متبعاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، وآثار الصحابة، طالباً لشرحها وبيانها من كلام الفقهاء المحققين، المائلين إلى الحديث عن النظر، وأصحاب العقائد المأخوذة من السنة، الناظرين في الدليل العقلي تبرعاً، وأصحاب السلوك، الجامعين بين العلم والتصوف، غير المتشددين على أنفسهم، والمدققين زيادة على السنة، ولا يصحب إلا من اتصف بهذه الصفات.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح مذهب الفقهاء بعضها على بعض، بل يضعها كلها على القبول بجملة، ويتبع منها ما وافق صريح السنة ومعروفها،

---

(١) ومن إفاداته في بعض المكاتيب: أن الزمان قد تغير وأن المشرب قد نكد وليس كل من تزيَّ بزي المسلمين مسلماً، وليس كل ما يدّعيه الإنسان لنفسه مسلماً، فإياك وخمسة أصناف من الناس فإنهم في الحقيقة بمنزلة النسناس:
شاطح يحتال في رفع التكليف، ولا يقف عند مجاري أمره عند التوقيف.
ومعقولي مجادل يسير فتنة الشكوك والأوهام، ولا ينقاد لقياد العزيز العلّام.
وفقيه مفرغ يستطيب الريح على أقوال ولا تتبع ما أوضحه النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم لأمته.
وزاهد متقشف يتشدد في دينه وكان الترخيص ليس فيه ضريبة.
وغني طاغ يتكلف زي الأعاجم ويتداخل في مضاربة الجماجم والسلام. انتهى [الحاشية].

فإن كان القولان كلاهما مخرجين، اتبع ما عليه الأكثرون[١]، فإن كان سواء فهو بالخيار، ويجعل المذاهب كلها كمذهب واحد من غير تعصّب.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح طرق الصوفية، بعضها على بعض، ولا ينكر على المغلوبين منهم، ولا على المأولين في السماع[٢] وغيره، ولا

---

(١) هذا الكلام يناقض ما قبله وذلك أنّه إذا وضع مذاهب الفقهاء في درجة واحدة اتبع ما وافق صريح السّنة ومعروفها، لم يعد للكثرة اعتبار، إضافةً إلى ذلك فإنّ الكثرة ليست معياراً للحق، فكثيراً ما يكون الصواب مع الأقل، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ ولقائل أن يقول: هذه الآية لا تنطبق على ما ذكرته، وذلك لأنّ الكثرة المذمومة في الآية سلكت طريق الباطل، بينما القلّة سلكت طريق الحق، أمّا في المذاهب فكلّها سالكة لطريق الحق، وما ترموا إلّا إليه، فهذا قياس مع الفارق.

والجواب عن هذا الاعتراض أنّ هذه المذاهب ـ الفقهية ـ جميعها أقوالها مخرّجة على وفق قواعد مذهبها، ولا يمكن أن تجد قولًا غير مخرّج، بل إلّا ويخرجها سواء بالنقل أو العقل، فالحنفي يستدل لمذهبه، وكذلك الشافعي، وكذلك الحنبلي، وكذلك المالكي، وكلّ واحد يستدلّ. فإذن هم قد استووا في أنّ لكل واحد أدلّة على مذهبه، وهنا بيت القصيد ألا وهو أن هذه المذاهب إذا اختلفت في حكم من الأحكام وكان اختلافاً بيّناً لا بدّ وأن يكون الخطأ في أحدها أو أكثرها. وذلك لأنّ الحق واحد لا يتعدّد كما هو معروف، وبالمثال يتضح المقال.

كما هو معلوم أنّ بعض الناس عندما يتيمّم يضرب بيديه على الصعيد ضربتين ويمسح بهما وجهه وذراعيه إلى المرفقين. وبعض آخر يضرب ضربة واحدة ويمسح بها وجهه وظاهر كفّيه.

والفريق الأول خرّج هذه الصّفة واستند إلى حديث التيمم ضربتان «ضربة للوجه وضربة لليدين مع المرفقين» [تنبيه: هذه الأحاديث التي وردت بهذه الكيفية كلها ضعيفة أنظر فتح الباري: (١/٤٤٤ ـ ٤٤٥)].

والفريق الثاني خرج صفة تيممه واستند إلى حديث عمار الذي هو في الصحيحين: «إنّما كان يكفيك هذا ومسح بوجهه وكفيه».

فلو كانت الكثرة مع الفريق الأوّل والقلّة مع الفريق الثاني، فإنّه على رأي «الدهلوي» يتبع الكثرة، وهذا خطأ بيّن، ومن هنا وقع التشبيه بين أولئك الذين اتبعوا الكثرة على الباطل والضلال، ولم يتبيّنوا، ولم يطلبوا الحق، وبين هؤلاء الذين اتبعوا الكثرة على خطئها وتركوا القلة التي على الصواب. والله أعلم.

(٢) هذا الكلام فيه تساهل كثير بل ينكر على الذين سلكوا طرق الصوفية، لأنها طرق مبتدعة.

هنا مسألتان يحسن توضيحهما وهما:

المسألة الأولى:

=

يتبع هو نفسَه إلا ما هو ثابت في السنة ومشى، عليه أصحاب العلم من المحققين الراسخين» انتهى.

= أنّ هذه الطرق الصوفية هي طرق محدثة في الإسلام، ساهمت بقسط كبير من نشر البدع والخرافات في هذه الأمة وهي على كثرتها مختلفة مع بعضها ومتباينة، مما ساهم في تفريق المجتمع، ولذلك أنكر العلماء هذه الطرق وبيّنوا خطرها وضررها، قال الدّهلوي في كتابه التفهيمات الإلٰهية (١/٢٠٥):

«ومنها أنني أقول في نفسي أنّ هؤلاء المتصوفة الضالة المضلة في زماننا هذا، أشهد بالله عليهم أنهم فرقة نابتة في الإسلام ليست من أصل الإسلام. كما أنّ الزارع يزرع الحبوب الغاذية النافعة ثم يسقيه الماء. فينبت من غزارة الماء وسهولة الأرض أنواع من الكلأ والعشب الذي لا يتمّ أمر الزارع إلّا بقطعها وإتلافها، وكذلك الله زرعَ زرعاً وهو محمد ﷺ وحاملو علومه، ثم سقاه بالقرآن والحِكم، فأصاب ذلك الأرض، فنبت الزرع المطلوب ونبت معه فرقة ضالة، كانت ذات فهم وذكاء وميل إلى بعض ما يقتضيه نفوسهم من أمور هذا العالم. فلمّا أصابها ماء العلوم اغتذى أهواءهم به، فنبت في قلوبهم مذاهب ما هي مطلوبة عند الله وعند رسوله، وتظن لاستمدادها من الكتاب والسّنة وفطانة أصحابها وتمكنهم في القول والعمل أنها حقّة» اهـ.

إذا عرفت أن هذه الطرق محدثة في الإسلام، فلتعلم أخي الكريم أنّ ما ينسب لبعض المشايخ مثل عبدالقادر الجيلاني أو أحمد الرفاعي هو كذب وزور، فأولٰئك كانوا على خير كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، لكن يد السّوء امتدت إليهم ونسبت لهم هذه الطرق والمحدثات.

فعليك أخي الكريم بالجادة، بما كان عليه أهل القرون المفضلة، وإيّاك وهذه الطرق، فطريق الرسول ﷺ واضح بيّن ليس فيه غموض، فارفع راية الكتاب والسّنة الصحيحة، وشمّر عن ساق الجدّ والاجتهاد، ولا تغرنّك كثرة أهل الباطل وتزيينهم له، فهو السّراب الخدّاع، وعليك بالصّبر، لأنك سوف تؤذى وتتهم، ولكن هي طريق الأنبياء، وقد أوذوا واتهموا، ولم يهبط ذلك من عزمهم ولا إرادتهم، حتى نصرهم الله، فتشبه بهم فهو الفلاح.

شبهوا لم تكونوا مثلهم ... إن التشبّه بالكرام فلاح

المسألة الثانية:

هي الإنكار على هذه الطرق، أقول: الأصل الإنكار عليها، وذلك للبدع والخرافات التي تدعو إليها، لكن إنكار المنكر كما هو معلوم يخضع لشروط ومراتب ومصالح ومفاسد، وكلّ هذه الأمور يجب مراعاتها في ذلك، نسأل الله أن يرزقنا الحكمة في الدعوة وأن يهدي المخطىء والضالّ (آمين).

الفصل الثامن

في بيان الإقبال على الكتاب وحديث الرسول وإيثار الخمول على لقاء الفحول

وهذا الفصل استفدناه من كلام السيد الإمام محمد بن إبراهيم اليمني عليه السلام، فنحن قد تشاركنا في هذا المذاق وتوافقنا في إبراز ذلك في الأوراق، قال رضي الله عنه، في وجه تجنبه لمناهج أهل الكلام[1]: صادفت مني قلباً قد غلق أبواب الدقائق، وترك الاستعداد للقاء فرسان هذه الحقائق وهم عن الداعي سمعاً، ولم يتمن ما تمناه ورقة بن نوفل من كونه فيها جذعاً، فمن أعظم الصوارف دنو الأجل، والهمّ بالاستعداد للقاء الله عز وجل، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال أعمالاً، وإن كنت لم أفعل جميع ما وقع به الاهتمام، وما أملت إيثاره بين أيدي الحمام، فالهم القوي كاف في الصرف عن الإقبال، وقد تشاغلت ببعض ما تعلقت به الآمال، وتعللت على أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين بالوقوف في أبوابه ومداواة قاسي طباعي بلطيف خطابه وإيثاري في خاتمة عمري بسنة رسوله وكريم كتابه، فمن ثم لزمت البيت، وآثرت الخمول، وتركت الفضول، وتمثلت بقول الزمخشري حيث يقول[2]:

---

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير اليمني ص(٤٩).

(٢) في ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان قبل هذا الكلام: =

أطلب أبا القاسم الخمول ودع	غيرك يطلب أسامياً وكنى
شبّه ببعض الأموات شخصك لا	تبرز إن كنت عاقلاً فطنا
علك تطفىء ما أنت موقده	إذ أنت في الجهد تخلع الرّسنا
ادفنه في البيت قبل ميتته	واجعل له من خموله كفنا

ومنها شدة المحبة لكتاب الله تعالى وسنة(١) رسوله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، ولذلك من الأثر ما لا ينكره منصف ولا يجحده إلا متعسف، ولا شك أن كل مسلم يحب كلام الله ويعظم كلام رسوله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم، ولكن للمحبة والتعظيم مراتب متفاوتة، ومقامات متباينة ولا ريب أن بعض الفنون أحب إلى بعض الناس، بل بعض كتب الفن الواحد أحب إلى بعض أهله، لما فيه من الخواص:

وإذا علمت بأنه متفاضل	فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

وقد وضعت كتاباً في تفضيل الإقبال على هذين العلمين والاستضاء بأنوار هذين النيرين(٢)، وذلك من جملة دلائل شغفي بهما، وذلي لمن

= وعملت على كلام السيّد العلّامة الإمام المؤيد بالله في استحباب ترك ما لا أحتاجه من الخوض في علم الكلام. وترك احتجاجي بما لا ينازع فيه عاقل. ولا يخالف فيه إلا جاهل أو متجاهل من إيثار الضروريات اليومية على الحاجات الأهلية، فإنّ الضروريات بلا قيد أقدم من الحاجية، لحين إذا تعينت الضرورية وتضيقت وتأخرت الحاجيّة وتوسعت. وعلى ذلك درج السلف الصالح، ومن اقتدى بهم من المناظرين في ترجيح متعارضات المصالح ومن الصوارف عن ذلك بشدة المحبة. . . .

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**من تمسك بسنّتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد**» رواه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**من أكل طيباً وعمل في سنته وأمن الناس بوائقه دخل الجنة**» فقال رجل: يا رسول الله هذا اليوم لكثير في الناس قال: «**وسيكون في قرون بعدي**» [رواه الترمذي]. وعن مالك بن أنس مرسلًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله**» [رواه في الموطأ] الحاشية.

(٢) وهذان الكتابان هما: «العواصم من القواصم»، ومختصره «الروض الباسم في الذّب عن سنة أبي القاسم» وهما مطبوعان.

استقصر قدر معارفهما، وبغى سبيلهما عوجاً، ينفر به قاصديهما، ومن ولع بشيء ولع بتمهيد الوسائل إليه، وقطع شبهة الصارفين[1] عن التعويل عليه، ولم يكد ينتفع بسواه ولا يهتدي إلا بهداه، وهذا معروف في طبائع المخلوقين، كما قال بعض المحبين:

ولو داوك كل طبيب دار بغير كلام ليلى ما شفاكا

وإذ[2] تقرر هذا في غير حب الله فالذين آمنوا أشد حباً لله، وخشيت أن أقطع العمر في الوسائل، وما وصلت إلى المتوسل إليه، ويعوقني[3] العلائق والعياذ بالله عما لا تعويل إلا عليه، فأكون كمن بالغ في الوضوء، وابتدع حتى خرج وقت الصلاة وضاق عليه ما اتسع.

وقد رأيت الزمخشري خصّ هذين العلمين الشريفين، بالتوسل إلى الله تعالى بهما في رقائق أشعاره ولم يذكره في توسله غير الكشاف والفائق من محاسن علومه، وآثاره، فأحببت أن أختم عمري من طيبهما، بما هو أحسن من ختام المسك، واستحضر من مقاماتهما ما ينتج الرفق والنسك، وقرعت في أوقات الرقة أبواب المنح، ومن دق باب كريم فتح، ولا ينبغي أن يضرب عما عزّ ويجتنب، ففي الحديث[4]: «**يستجاب للعبد ما لم يقل: قد دعوته ودعوت فلم أجب**»، ولا يرد على هذا مناقضته بسوء ما أنا عليه من الحالة بالنظر إلى الأخيار، فذلك هو الموجب للاهتمام بأقرب الطرق إلى النجاة من النار، والتشبه بما كان عليه الأبرار، من العزلة، والفرار، والاشتغال بالقرآن والآثار، والأذكار، والاستغفار، والاستعانة بلسان الانكسار والاضطرار:

---

(١) في المرجع السابق: الصادقين.

(٢) في المرجع السابق: فإذا.

(٣) في المرجع السابق: وتعوقني.

(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات رقم (٥٨٦٥) وكذلك مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم (٤١٩٦) وغيرهما.

وهـم الأسـاة فـنـاد فـي عـرصـاتـهـم أضـحـى ببـابـكـم الـعـلـيـل مـمـرضـوا

ومنها[1] عدم وجدان الصديق الصدوق[2] البريء عن الجفاء والعقوق، القائم للأخوة من اللوازم والحقوق، ميمون الخلائق، مأمون البوائق، رباني الهمة رهبانيها، برهاني المعارف قرآنيها.

صموت إذا ما الصّمت زيّن أهله وفتاق أكمام الحديث المحكم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآيات باللحم والدم

وما تركت الطلب حتى طال ارتيادي له بالجد والجهد، فكنت كلّما وجهت أملي إلى وجهته، لم ألق إلا بني سعد لعدم الحظ، لا لعدم المطلوب، فكم في الباب من علم منصوب، ووجيه محبوب، وصادق مجذوب، حتى عاد البصر خاسئاً وحسيراً، كأنما سمته أن يريني في خلق الرحمٰن تفاوتاً وفتوراً، ولامني على الطمع في ذلك كلُّ عارف نصيح، وأنشدوني في ذلك كل قول فصيح ومعنى صحيح[3]:

ومن عدم الإنصاف أنّك تبتغي الـ ـمهذب في الدين ولست المهابا[4]

(١) في ترجيح أساليب القرآن: ومن الصوارف عن ذلك، الموعرة لسلوك هذه المسالك عدم....
(٢) سواد بالأصل.
(٣) وجد على الهامش: أنشد أبو الحسن عبدالرحمٰن بن محمد بن المظفر الداودي لنفسه:
كان في الاجتماع للناس نور فمضى النور وادلهمّ الظلام
فسد النّاس والزمان جميعاً فعلى الناس والزمان السلام
وأنشد أبو الفتح البستي رحمه الله لنفسه:
وإنّ غريب من بسته وأهلها وإن كان جيراني بها وبها أهلي
وما قربة الإنسان في شقة النوى ولكنها والله في عدم الشكل
(٤) في ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص(٥١): فمن ذلك قول الزمخشري:
تيمّمت أسأل من عنّ لي من الناس هل من صدوق صديق
فقالوا عزيزان لا يوجدا ن صديق صدوق وبيض الأنوق
وقول الآخر:
=

وما زلت في زمان الحداثة وأيام الفرارة أسدّ سمعي عن كل نصيحة، وأرد بطبعي في هذا كل حجة صحيحة، وحبك الشيء يعمي ويصم، وما ينجو من الهوى إلا من عصم، حتى أسفر لي صبح الخبرة لأحوال[1] الرجال، فنادى مؤذن التجارب الصلاة في الرحال، وأمر النصحاء[2] برفع الأصوات بالنذارة من كل منارة، تارة [فتارة][3]، ودعيت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾[4]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾[5]، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾[6]، ومرة أسمع: «يوشك أن يكون خير مال الرجل المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»[7]، «ائتمروا بينكم بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب

= صاد الصديق وكاف الكيمياء معاً ... لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وكم سعى لهما قوم وكم جهدوا ... فما أظنهما كانا ولا اجتمعا

وقول الآخر:

من لك بالمهذب الندب الذي ... لا يجد العيب إليه مختطى

وقول الآخر:

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أيّ الرجال المهذب

وقول الآخر وهو الذي أطرب الرشيد:

غديري من الإنسان لا إن جفوته ... صفاني ولا إن صرت طوع يديه
وإنّي لمحتاج إلى ظلّ صاحب ... يرقّ ويصفو إن كدرت عليه

وأحسن منه: ومن عدم الإنصاف...

(١) في المرجع السابق: عن أحوال.
(٢) في المرجع السابق: الفصحاء.
(٣) محذوفة من المرجع السابق.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٤.
(٥) سورة مريم، الآية: ١٦.
(٦) سورة الكهف، الآية: ١٦.
(٧) رواه البخاري في صحيحه [الإيمان/ رقم ١٨] وسنن النسائي [الإيمان وشرائعه برقم ٤٩٥٠].

كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة[1]. فاعتزل(*) تلك الفرق كلّها ولو أنك تعض على جذل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك»[2]، «والزم بيتك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر»[3]. «ليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[4][5]، فعقدت على ذلك اعتقادي. وعزمته على لزومه بعد أن همته في كل وادي، وقنعت من الغنيمة بالإياب. حين[6] سلمت في سفري من الذئاب المدلسة بلبس الثياب، وأنها والله بدليلي العقل والحس، أخبث نوعي هذا الجنس. لا سيما من كان ظاهره بالزهادة متحلياً، وباطنه من حلية الإخلاص متخلياً، وقد أبدع الزمخشري وأجاد في قوله في هذا الجنس من العلماء والزهّاد:

إني على ما أراكم لا أحذركم ... مغرة اللّص والأكراد والفسقة
لكن أحذركم من ينبري لكم ... في هيئة الزهد لكن همه السرقة
صلاته الرمح والتسبيح أسهمه ... وصومه سيفه والمصحف الدرقه[7]

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن [كتاب تفسير القرآن برقم ٣٠٥٨] وغيره.
(*) وذكر الشيخ المحدث محمد عابد السندي رحمه الله في كتاب الشوارد: ولما اعتزل الخطابي النّاس وعوتب أنشد:
أنست بوحدتي ولزمت داري ... فدام الأنس لي نمي السرور
وأدّبني الزمان فلا أبالي ... هجرت فلا أزار ولا أزور
ولست بسائل ما دمت حيّاً ... أسار الجيش أم ركب الأمير
(الحاشية) [أنظر العزلة ـ للبسي ص (١٠٨)].
(٢) أخرجه البخاري في [كتاب الفتن برقم ٦٥٥٧] ومسلم في صحيحه [كتاب الإمارة برقم ٣٤٣٤].
(٣) أخرجه أبو داود في سننه [كتاب الملاحم برقم (٤٣٤٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٦٤٩)].
(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨/٤) والترمذي برقم (٢٤٠٦) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٩٦١).
(٥) توجد فقرة بعد هذا الكلام محذوفة اختصاراً فلتنتبه.
(٦) في ترجيح أساليب القرآن: حتى.
(٧) في ترجيح أساليب القرآن بعد هذه الأبيات.
فبقيت في هذه المدة المديدة سنين عديدة.
=

وقد قلت في ذلك مجيباً عن من لام وعاب، من الأهل والأحباب:

لامـنـي الأهـل والأحـبّـة طـرّاً ... في اعتزالي مجالس التدريس
قلت لا تعذلوا فما ذاك منّي ... رغبة عن علوم تلك الدروس
هي رياض الجنان من غير شك ... وسناها يزري بنور الشموس
غير أن الرياض تأوي الأفاعي ... وجوار الحيّات غير أنيس
حبذا العلم لو أمنت وصاحبـ ... ـت إماماً في العلم كالقاموس
غير أني خَبَرْتُ كلّ جليس ... فوجدت الكتاب خير جليس
ورضيت المروي عن جدّي القا ... سم من جامع علوم الطروس
فدعوني فقد رضيت كتابي ... عوضاً لي عن أنس كلّ أنيس

وأعجبني[١] فواصل هذه الأبيات بقول من قال:

لو تركنا وذاك كنّا ظفرنا ... من أمانينا بعلو نفيس
غير أن لزمان (أعني بنيه) ... حسدونا على حياة النفوس

وهذان البيتان زادهما قائلهما على قول بعض العارفين:

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستبدّوا بالرأي دون الجليس
أو صحبنا التجار عدنا إلى اللوم ... وصرنا إلى حساب الفلوس
فلزمنا البيوت نستعمل الحبـ ... ـر ونطلي به وجوه الطروس[٢]

وفي هذا المقام بنيت دور المنى، وثنّيت ببدور الهنا، وفطمت نفسي

= قد اعتزلت الرّافضي جانبا ... والناصبي والمجترىء والمجبر
واعتضت عن خطاب كلّ جاهل ... خطاب فكي أو خطاب دفتري
وقلت لا تفتريا في خبري ... فقد نبذت كل خلٍّ مفتر

(١) في ترجيح أساليب القرآن:
ولما لم أسلم من القيل والقال، بعد الفرار والاعتزال أعجبني فواصل....

(٢) في ترجيح أساليب القرآن بعد هذه الأبيات:
ونناجي العلوم في كل فن ... عوضاً عن منادمات الكؤوس
وقنعنا بما به قسّم اللـ ... ـه ولم نكترث بهمّ وبؤس

عن الطمع في النّاس، حتى طعمت لذة اليأس، ولم أقل:

ولا بدّ من شكوى إلى ذي حفيظة ... يواسيك أو يأسوك أو يتألم

ولكن قلت: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله، وأقبلت على ربّي وحده بكلّي وأخلصت له تفويضي وتوكّلي:

وكاد سروري لا يفي بندامتي ... على ما مضى من عمري المتقادم

[إن اشتغلت بعلم النّاس أحفظه ... دهري فذلك شيء لا يواتيني

وإن رجعت إلى علمي لأحرسه ... فطالب العلم يمضي ليس يأتيني][1]

والحمد لله أولّا وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه ومتبعه وبارك وسلّم.

❋ ❋ ❋

---

(١) محذوفة من ترجيح أساليب القرآن.
والحمد للّه رب العالمين على تحقيق هذا الكتاب وصل اللهم وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه (آمين).

المصادر والمراجع

١ ـ **أبجد العلوم** ـ محمد صديق خان ـ دار الكتب العلمية.

٢ ـ **إحياء علوم الدين** ـ الغزالي ـ تحقيق د.عبدالله الخالدي ـ ط١(١٤١٩)هـ دار الأرقم بيروت.

٣ ـ **تتمة الأعلام** ـ الزركلي ـ ط١(١٤٢٠)هـ دار ابن حزم.

٤ ـ **إعلام الموقعين** ـ لابن القيم ـ تحقيق محمد عبدالسلام إبراهيم ـ ط٢(١٤١٤)هـ ـ دار الكتب العلمية.

٥ ـ **البرهان القاطع في إثبات الصانع** ـ لابن الوزير ـ تحقيق مصطفى عبدالكريم الخطيب ـ ط ١ (١٤٠٩)هـ.

٦ ـ **التاج المكلل** ـ دار الثقافة العربية ـ دمشق.

٧ ـ **تاريخ الإسلام** ـ الذهبي ـ تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ـ ط١(١٤١٧)هـ ـ دار الكتاب العربي.

٨ ـ **تحذير الخواص من أحاديث القصاص** ـ السيوطي ـ تحقيق لطفي الصباغ ـ ط٢ (١٤٠٤)هـ المكتب الإسلامي.

٩ ـ **التحف في مذاهب السلف** ـ الشوكاني ـ تحقيق سيد عاصم علي ـ ط١ (١٤٠٩)هـ دار الصحابة.

١٠ ـ **تذكرة السامع والمتكلم** ـ لابن جماعة ـ دار الكتب العلمية.

١١ ـ **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان** ـ لابن الوزير ـ ط١ (١٤٠٤)هـ دار الكتب العلمية.

١٢ ـ **التصوف المنشأ والمصدر** ـ إحسان إلٰهي ظهير ـ ط١ (١٤٠٦)هـ ـ إدارة ترجمان السّنة.

١٣ ـ **التمهيد** ـ ابن عبدالبرّ ـ تحقيق عبدالله بن صديق ـ (١٣٩٩) هـ مؤسسة قرطبة.
١٤ ـ **سير أعلام النبلاء** ـ الذهبي ـ ط١٠ (١٤١٤)هـ مؤسسة الرسالة.
١٥ ـ **السلسلة الصحيحة** ـ الألباني ـ ط٤ (١٤٠٥)هـ ـ المكتب الإسلامي.
١٦ ـ **شذرات الذهب** ـ لابن عماد الحنبلي ـ ط٢ (١٣٩٩)هـ دار المسيرة.
١٧ ـ **شرح العقيدة الطحاوية** ـ لابن أبي العز الحنفي ـ تحقيق الألباني ـ ط٩ (١٤٠٨) هـ ـ المكتب الإسلامي.
١٨ ـ **شرح الفقه الأكبر** ـ لعلي القاري ـ ط١ (١٤٠٤)هـ دار الكتب العلمية بيروت.
١٩ ـ **الشفا في حقوق المصطفى** ـ للقاضي عياض ـ مكتبة صالح المدهون.
٢٠ ـ **صحيح البخاري (الجامع)** ـ البخاري ـ تحقيق محب الدين الخطيب ـ ط١ (١٤٠٠)هـ المكتبة السلفية.
٢١ ـ **صحيح سنن الترمذي** ـ الألباني.
٢٢ ـ **صحيح سنن ابن ماجه** ـ الألباني.
٢٣ ـ **صحيح سنن النسائي** ـ الألباني.
٢٤ ـ **صحيح مسلم** ـ الإمام مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ ط (١٤١٣)هـ ـ دار الكتب العلمية.
٢٥ ـ **صون المنطق والكلام** ـ للسيوطي ـ دار الكتب العلمية.
٢٦ ـ **العقيدة النظامية** ـ الجويني ـ تحقيق عبدالغفار البنداري ـ دار الكتب العلمية.
٢٧ ـ **العلو للعلي العظيم** ـ الذهبي ـ تحقيق عبدالله بن صالح البرّاك ـ ط١ (١٤٢٠)هـ ـ دار الوطن.
٢٨ ـ **فوات الوفيات** ـ الكتبي ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت.
٢٩ ـ **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** ـ للغزالي ـ تحقيق د.سليمان دنيا ـ ط١ (١٣٨١)هـ. دار إحياء الكتب العربية.
٣٠ ـ **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسّنة** ـ عبد الرحمن عبدالخالق ـ ط١ (١٤١٤)هـ ـ جمعية إحياء التراث الإسلامي.
٣١ ـ **الكشف عن مناهج الأدلة** ـ ابن رشد ـ ط (١٩٨٧)م ـ دار مكتبة التربية ـ بيروت.
٣٢ ـ **المجموع الثمين في فتاوى الشيخ ابن عثيمين** ـ جمع فهد بن ناصر السليمان ـ ط١ (١٤١٠)هـ دار الوطن ـ الرياض.
٣٣ ـ **مستدرك الحاكم** ـ دار المعرفة.

٣٤ ـ **مسند الإمام أحمد** ـ الإمام أحمد ـ دار الفكر.
٣٥ ـ **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ـ القرطبي ـ تحقيق محي الدين مستو وآخرون ـ ط١ (١٤١٧)هـ دار ابن كثير دمشق.
٣٦ ـ **معجم المؤلفين**.
٣٧ ـ **نهاية الإقدام في علم الكلام** ـ الشهرستاني ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة.
٣٨ ـ **نقد الطالب لزعل المناصب** ـ لابن طولون الدمشقي ـ تحقيق محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان ـ ط١ (١٤١٢)هـ ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة المحقق.	٥
- ترجمة المؤلف.	٧
- مؤلفاته.	٢٠
- طريقة تحقيق الكتاب.	٢٩
- مقدمة المؤلف.	٣٥
الفصل الأوّل في بيان عظم القرآن الكريم.	٣٧
الفصل الثاني في نصوص أهل العلم في كراهة علم الكلام.	٤٥
- نقل عن أبي حنيفة في ذم علم الكلام.	٤٦
- نقل عن القاضي أبي يوسف في ذم علم الكلام.	٤٦
- نقل عن الشافعي في ذم علم الكلام.	٤٧
- نقل عن مالك في ذم علم الكلام.	٤٧
- نقل عن الإمام أحمد في ذم علم الكلام.	٤٨
- نقل عن علي القاري في ذم علم الكلام.	٤٨
- نقل عن القرطبي في ذم علم الكلام.	٥٠
- نقل عن الشوكاني في ذم علم الكلام.	٥٣
- نقل عن ابن الوزير في ذم علم الكلام.	٥٥
- نقل عن البلخي في ذم علم الكلام.	٥٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث في ذم التأويل:	٥٧
- نقل كلام لابن القيم في ذم التأويل.	٥٧
- خطورة التأويل.	٦٠
- المتأوّلون أصناف عديدة.	٦٠
- آثار التأويل.	٦١
- نقل عن ابن رشد في ذم التأويل.	٦٢
- نقل عن الشافعي في ذم التأويل.	٦٤
- نقل عن الجويني في ذم التأويل.	٦٥
- نقل عن الغزالي في ذم التأويل.	٦٦
الفصل الرابع في مآل علم الكلام والجدال إلى الحيرة والشك	٦٨
- ترك كثير من العلماء لعلم الكلام آخر حياتهم.	٦٩
- ترك الشوكاني لعلم الكلام أوّل طلبه وتمسكه بما كان عليه السلف.	٧٤
الفصل الخامس في بيان ما أبدل من ألفاظ العلوم:	٧٥
- نقل عن الغزالي من كتابه الإحياء.	٧٥
- معنى الفقه.	٧٦
- معنى العلم.	٧٧
- معنى التوحيد.	٧٨
- معنى الذكر والتذكير.	٧٩
- معنى الحكمة.	٨٠
الفصل السادس في بيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء:	٨١
- علامات علماء الآخرة.	٨١
- لا يطلب الدنيا بعلمه.	٨١
- أن يحصل العلم النافع.	٨٢
- أن يزهد في المأكل والملبس.	٨٢
- لا يخالط السلاطين.	٨٣
- لا يتسرع في الفتيا.	٨٣

الموضوع	الصفحة

- أن يهتم بإصلاح باطنه كظاهره. ٨٤
- أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين. ٨٤
- أن تكون عليه سكينة وتواضع. ٨٤
- أن يتوقى الشرّ وما يوصل إليه. ٨٤
- أن يترك التقليد. ٨٥
- أن يتوقى البدع والمحدثات. ٨٥
- أن يقف حيث وقف السّلف. ٨٥

الفصل السابع في صفات العالم الربّاني: ٨٧

- عدم الاشتغال بعلم الكلام والمنطق. ٨٨
- دعوته للناس بالحسنى. ٨٨
- تجنب القصص المنكرة. ٨٩
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ٩٠
- مواساة الفقراء وطالبي العلم. ٩٠
- لا يصحب الأغنياء ألاّ لخير. ٩١
- لا يصحب الصوفية ولا علماء الكلام. ٩١
- أن يترك العصبية المذهبي. ٩١

الفصل الثامن في بيان الإقبال على الكتاب والحديث: ٩٤

- نقل عن ابن الوزير اليمني في كيفية طلبه لهذين العلمين. ٩٤
- خاتمة الكتاب (اللهم اختم لنا بالحسنى). ١٠١

المصادر والمراجع ١٠٢

فهرس الموضوعات ١٠٥

قصد السبيل

إلى ذم الكلام والتأويل